حياة الأرسوزي في سطور

- ولد زكي الأرسوزي في حزيران (يونيو) ١٨٩٩ في مدينة اللاذقية . كان أبوه محامياً ، وأمه سيدة تنتمي الى اسرة شهيرة بالتقى والورع في قرية أرسوز .

- انتقل الطفل زكي مع ابويه الى انطاكية ، إذ اخذ والده يمارس فيها مهنة المحاماة . ولأن ميوله الوطنية أثارت عليه غضبة السلطات التركية فقد قررت نفيه مع عائلته الى أنقرة . آنذاك تعلم الطفل زكي اللغة التركية وأتقنها .

- درس أول مادرس عند « الكتّاب » أي الشيخ الذي يعلم الأطفال قراءة القرآن . حفظ زكي الأرسوزي القرآن الكريم عن ظهر قلب ، ثم انتقل الى المدرسة الابتدائية سنة ١٩٠٨ . وبعدها انتقل الى المدرسة الثانوية (الرشدية) حيث أتقن الرياضيات . كانت مطالعاته مركزة في ذاك الحين على الكتب الصوفية والدينية .

- بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ذهب الأرسوزي الى بيروت ودرس فيها اللغة الفرنسية خلال سنة .

الشعب العربي في انطاكية قد اصبح قوة واحدة في وجه الاستعمار .

- في سنة ١٩٣٤ فصل زكي الأرسوزي من الوظيفة . أصبح اسمه على كل لسان في لواء الاسكندرون بل وفي مدن سورية .

- انتسب الى عصبة العمل القومي ، وهي منظمة سياسية كانت تنادي بالكفاح الثوري .

- في سنة ١٩٣٦ اتضحت المؤامرة الدولية لسلخ لواء الاسكندرون عن سورية والحاقه بتركيا . كان نضال زكي الأرسوزي ضد هذه المؤامرة مثالاً رائعاً في الشجاعة والرجولة والقدوة .

- وحين تم فصل لواء الاسكندرون عن سورية في ١٩٣٨ هاجر زكي الأرسوزي وتلامذته من انطاكية الى حلب ، وهنـــاك واصلوا تبشيرهم بالعروبة .

- من حلب جاء زكي الى دمشق وأقام فيها .

- في سنة ١٩٣٩ سافر الى العراق ليدرس في بغداد . وبعد سنة أبعدته سلطات الاستعمار الانكليزي عن العراق فعاد الى سورية فقيراً لا يملك قرشاً . وفي دمشق عاش مع طلابه وتلامذته في غرفة واحدة بائسة .

- في سنة ١٩٤٢ نشر زكي كتابه الأول « العبقرية العربية في لسانها » شرح فيه وجهة نظره في فلسفة اللغة العربية وأصالة اللسان العربي .

- بعد الجلاء ، أي في سنة ١٩٤٦ عين زكي الأرسوزي استـــاذاً في ثانوية حماه .

- في سنة ١٩٤٧ انتقل مدرساً للفلسفة في حلب .

- في سنة ١٩٥٣ عاد الى دمشق ليدرس الفلسفة واستمر كذلك حتى سنة ١٩٥٩ حيث احيل الى المعاش .

- خلال السنوات التي قضاها زكي الارسوزي في سورية أي من سنة ١٩٣٩ وحتى وفاته سنة ١٩٦٨ كانت حياته اليومية واحدة : توعية الأجيال العربية لبعث الأمة العربية .

- بعد مرض عضال استمر ست سنوات توفي زكي الارسوزي يوم ٢تموز (يوليو) ١٩٦٨ .

- أهم مؤلفاته : - العبقرية العربية في لسانها

- بعث الأمة العربية ورسالتها الى العالم (ستة أجزاء)

- الجمهورية المثلى

- مشاكلنا القومية

- مقالات كثيرة في المجلات السورية .

وستقوم لجنة خاصة عما قريب بنشر جميع آثار زكي الأرسوزي بصورة منهجية وكاملة .

اعداد

م . المثلا

الأرسوزي الإنسان

أديب اللجمي

احترام الانسان ، واحترام الجوهر الذي به يصبح الكائن الحي انساناً يتميز عن سائر الكائنات الحية الأخرى ، كانا قوام تفكير الارسوزي وسلوكه. فهو إن تغنى بالعروبة فلأن الانسان العربي في رأيه تتمثل فيه ، أكثر من أي انسان آخر ، هذه « الصبوة الى الملأ الأعلى » . وهو إن جعل العرب « خير أمة أخرجت للناس » ، فلأن الفضائل التي تنطوي عليها نفس الانسان العربي هي من الغنى والأصالة بحيث يحق له أن يكون قدوة للآخرين .

« ان الأمة العربية ، وهي ينبوع الشعوب السامية كافة ، عالم بذاتها ، لم تأفل منذ ظهور الانسان على مسرح التاريخ ، وهي تطهر بفيضها ، في كل مرحلة ، ما تراكم من آثام على الشعوب ، فتهديها الى تحقيق أهدافها . انها أبداً مشرقة بنورها على الانسانية ، وقد تبدو حيناً مفككة متناثرة ، أبناؤها منزوون في فوقعة من الأنانية ، إلا أنها لاتلبث حتى يسطع منها نبي أو زعيم ، فيبعث بها من جديد ، ويلقي النور الحاصل من تأججها شفقاً على العالم أجمع ، فيهدي الأمم

حينئذ بنارته الى تحقيق رسالتها وعند ذلك تتحدى هذه الأمـــة تقديرات المؤرخين [1] . »

والأمة في مفهوم الأرسوزي هي كالفرد من حيث تلاحم أبنائها فيا بينهم ، على غرار تلاحم الولد بأمه . ان الانسان أولاً هو ما يهمنا ، لا لأنه « أثمن شيء في الوجود » ، ولا لأنه قيمة مثلى وحسب ، بل لأنه أجمل الخلائق وأقربها الى المثل الأعلى ، الى الله .

من هنا لم يكن الأرسوزي فيلسوفاً يحاول تفسير العالم في هيكل فكري ، ولم يكن سياسياً يريد أن يبدل المجتمع بأساليب التبديل المألوفة ، بل كان مفكراً أخلاقياً يتوق الى أن يجعل الناس كلهم طيبين ، والى أن يصبحوا أخياراً . في حياته اليومية نفسها كان يقوّم اعوجاج تلامذته ومريديه . بل في « الخيال » نفسه كان يفعل ذلك . كم كان يروي لنا أنه في كل مرة ذهب الى الحلاق ، واضطر الى انتظار دوره ، كان يراقب المارة وفيهم محدودب الظهر ، والأصلع ، وذو الأنف الممدود ، والقزم . فكان خياله يشتغل طوال الوقت في تقويم ظهر ذي الحدبة ، وإكساء رأس الأصلع شعراً ، وتنسيق أنف الآخر ، وتطويل قامة القزم ، وتجميل جسم المشوه ، وهكذا حتى يأخـــذ العرق يتصبب من جبينه لفرط الإجهاد .

أخلاقياً كان الأرسوزي ، بالفكر والممارسة . كان ايمانه شديداً بقدرة الانسان على الارتقاء : رغم أن رجليه تمشيان فوق الأرض ، فإن باستطاعة رأسه أن يرتفع حتى يبلغ السماء . أقول إن ذلك ممكناً ؛ ولكن قد يحدث العكس ، أن

---

(١) مشاكلنا القومية – ص ١٣٣ – منشورات دار اليقظة العربية – ١٩٥٨

يتدنى الانسان بدلاً من أن يرتقي ! « يتدنى الانسان اذا انفلتت في منظومة الحياة الميول الدنيئة من ولاية الميول الرفيعة ، واذا تحول محور الحياة من البنية الى البيئة ، بحيث تتراخى صلة الرحم وتتلاشى الأحساب والأنساب ، فيصبح الناس عندئذ رعاعاً يلبسون لكل حالة لبوسها (١) . »

ويلاحظ في هذا النص الهام استعمال الأرسوزي لتعبير « المنظومة » ، وهو شائع في نصوصه الأخرى . ان بين الأخلاق والجمال في مفهوم الأرسوزي لامجرد شبه وحسب ، بل تماثلاً . فالأخلاق هي انسجام بين فضائل النفس ، والجمال هو اتساق وانسجام بين أجزاء الجسم أو عناصر المادة والطبيعة ؛ وليس من أخلاق ولا جمال إذا لم يتحقق مثل هذا الانسجام . « فالانفلات » هو بالضبط انهيار الاخلاق وانهيار الجمال . بل ان الاخلاق هي الجمال بالنتيجة : « اذا كانت الغرائز تعين للحيوان حدود نظام حياته فان الميول عند الانسان قد تنطلق متخطية حدود مايقتضيه نظام حياته بحيث يصبح ألعوبة تتقاذفها أهواؤه، بدلاً من أن ينسقها ويجعلها طوع ارادته . واذا فقد الانسان سيطرته على ميوله تحولت الحياة عن أغراضها ، عن حكمة وجودها ، ألا وهي أن يكون سيد مصيره (٢) . »

من هنا كان اهتمام الأرسوزي في البدء والنهاية ، بل في جميع مراحل تفكيره وحياته ، منصباً على الانسان ، على إشاعة الايمان لدى الانسان أن باستطاعته ان يتجاوز قاعدته الأرضية ، وأن يرتفع فوق ضرورات البيئة :

---

(١) بعث الامة العربية ورسالتها الى العالم (رسالتنا المدنية والثقافة) - منشورات دار اليقظة العربية - ص ١٩

(٢) مشاكلنا القومية - منشورات دار اليقظة العربية - دمشق - ص ١١٤

« ان الحياة منظومة مغلقة في جميع الأحياء إلا في الانسان ، فإنها تبقى ذات صبوة الى الملأ الأعلى ... واذا كان الانسان قد أنشأ المدنية والثقافـــة ، فرمم بالأولى قاعدة كيانه في الطبيعة ، وحرر مشيئته من ضرورات البيئة ، وخلق بالثانية ذاته نامية ، وشيد بها صرح الانسانية متعالياً ، فذلك لأن العبارة تقصر عن المعنى في الحياة ، ولأن الطبيعة لا تستنفد الملأ الأعلى [1] . » ان طاقـــة الانسان للصعود كبيرة ، بل لاحدود لها . فالانسان ، وحده دون سائر المخلوقات ، يمكن أن يكون نبياً ، ويمكن أن يصبح بطلاً : « ما الرسالة إذا لم تكن اقتباس المعرفة من الملأ الأعلى ، وتنظيم العالم على ضوء المعرفة المثلى ؟ أفليست النبوة أصالة في المعرفة ؟ أو ليست البطولة أصالة في العمل ؟ [2] » .

وفي تقديري أنه ليس بين زعماء الفكر العرب ، بل ليس بين ساستهم المؤمنين بأمتهم المعتزين بالانتساب اليها ، من هو أكثر تفاؤلاً من الارسوزي ، بقدرة الانسان عامة ، وقدرة الانسان العربي على وجه خاص ، على صنع المعجزات : **« ان النـــاس انما يتحدون بوحدانية الحقيقة ، لا بخضوعهم للضرورة كما هي حالة الاشياء في الطبيعة . واذا كان الانسان يتمتع بقيمة مطلقة يتميز بها عن الاشياء والاحياء ، فانه يتلقى القيمة من اتصاله بالملأ الأعلى [3] » . « الله في الجو الصالح تتفتح الحياة عن مكنوناتها ، فتنمو نمواً سليماً ، ومتى تفتحت الحياة كاملة اشتدت صبوة صاحبها ، الانسان ، الى مصدر كينونته اي الى الملأ الأعلى ، [4]** . من هنا جاء خوف الارسوزي من تردي الانسان ، اي من انقطاع صلته بالملأ الأعلى . فهو لم يكن يخشى الجوع ، ولا الفقر ، ولا شروط الحياة المادية البائسة ، بل لم يكن يأبه لمثل هذه التفاهات ، . كان همه

(١) بعث الامة العربية ورسالتها الى العالم – ص ١١
(٢) المرجع السابق ص ٩
(٣) ص – ٥٩ .
(٤) مشا كلنا القومية – دار اليقظة ، دمشق – ص ١١ .

كله ألا يرى الانسان يغدو فقير النفس ، تافه الطموح ، أسير الغرائز والأهواء: « لما ضاق على الناس أفق الوجود ، تقلصت فيهم الحياة الى ظلف من الانانية ، مخلدة الى السكينة حتى الجمود ، مستسلمة للظروف، خاضعة لأراجيفها استسلام وخضوع : كلاهما يجعل الانسان مادياً وانانياً ودنيئاً [1] » .

أن يكون الانسان نظيف النفس ، نظيف الجسم ، ذلك ما كان يعنى به الارسوزي اكثر من عنايته في أن يفكر الانسان تفكيراً عميقاً أو أن يبني القصور الشامخات. ان اعظم ما يبنيه الانسان هو الأخلاق بل ان الانسان بالنتيجة هو الاخلاق ، إذ أن هذه تتضمن كلًا من الفن (الابداع والجمال) والخير . فلا انسان بلا أخلاق . ومثل هذا الدرس الكبير ، كان درس الارسوزي في كل مناسبة ، في كل لقاء له مع تلامذته وزملائه ومريديه . مثل هذا الدرس ما زالت تفتقر اليه الأجيال العربية الراهنة ، بل أن حاجتها اليه تزداد بازدياد ما يتتابها اليوم من ضياع وانهيار . « ان كلمتي « شعور » و « واجب » تدلان بأرومتها اللغوية « شع » ، و « وج » ، على ان الشعور ينجم في الوجدان من التجاوب الرحماني بين الاخوة ، وان الواجب انما هو استجابة قوية تجيب بها النفس على وضع منحرف ، تجيب بها اجابة تتفاوت بالشدة والرفعة . فاذا اعترى كيان الحياة عطب بدا الواجب متلبساً بشعور الرحمة (من الرحم) ، واذا اصاب نظام المجتمع خلل بدا الواجب متلبساً بشعور العدالة ، واذا انتاب وضع المجتمع البلى ، بدا الواجب متلبساً بشعور الدعوة الى الاصلاح [2] » .

الانسان أولا ، والانسان أخيراً ، ذلكم هو درس الارسوزي لنا . ولقد كان انساناً عظيماً في حياته ، مثلما ظلّ انساناً عظيماً بعد وفاته .

---

(١) رسالتنا المدنية والثقافة — ص ٢٢ .

(٢) الجمهورية المثلى - منشورات دار اليقظة - ص ٦

الأرسوزي :
العرب أمة واحدة

فائز إسماعيل

منذ أربعين عاماً .. حين كان الاستعمار يحتل كافة بلاد العرب ، وكان العرب يرزحون تحت اعباء التبعية والتخلف والتجزئة .

وفي بقعة صغيرة من وطننا العربي الكبير هي (لواء الاسكندرونة) ، هذه المنطقة التي اتجهت اليها ابصار الدول الكبرى طامعة بثرواتها المغرية ، وبموقعها الجغرافي الممتاز .

وفي تلك الظروف الحالكة ، التي كان فيها الاستسلام للانتداب الفرنسي هو الموقف الطبيعي ، والتمرد هو الاستثناء ؛ ذلك ان فرنسا كانت في قمة قوتها وصلفها وعنجهيتها ، ومن أبرز الدول الكبرى .

في هذه البقعة الغالية من وطننا ، وفي تلك الظروف ، يرتفع صوت الارسوزي داوياً ؛ يهدر بآرائه الجريئة ، ومواقفه البطولية ، متحدياً الاستعمار وطغيانه ، متجاوزاً مطالب منطقته الصغيرة الى مطالب أمته ، معبراً عن روح أمته وطموحها ، وطموح اجيالها ؛ يشيع في نفوس المناضلين — الذين انتقلوا

حوله – الثقة بامكان هدم سطوة الاستعمار ونفوذه ، والتبشير بامكان النصر عليه مؤكداً ان سر محاربة الاستعمار لنا ، وبهذه القسوة والفظاظة ، هو كوننا ندعو الى وحدة العرب والى استلام الشعب العربي مقدراته السياسية والاقتصادية . ان قوتهم الكبرى ليست في صمودهم العظيم في بلادهم الصغيرة، وليست في طاقاتهم المحدودة المعروفة ، بل ثمة قوى هائلة وراء حدود اللواء ومن ابناء امتنا العظيمة، يشعرون شعورهم ، ويفكرون تفكيرهم ، ويناضلون من اجل اهدافهم ، وهم يتتبعون انباء بسالتهم ومعاركهم . . . وكان يعلن لهم بأن سر نجاح العرب هو في وحدة نضالهم لأن اهدافهم واحدة،وكان له الفضل الاول في غرس شعارات: (العرب أمة واحدة) و (الوطن العربي وحـــدة لا تتجزأ) و (العربي سيد قدره) .

ان الرسالة البسيطة التي كانت خيالاً كبيراً يداعب فكره الثاقب في مدينة أرسوز ، تحولت الى قضية امة . . ذلك لان هذا الخيال الكبير ، وهذه البدايات الساذجة الواعية ، اصبحت اساساً متيناً وقوياً لقضية العربية الكبرى.

ان هذه الرسالة لم تقف عند حد تتجمد عنده ، ولم تخفها الظروف القاسية التي مرت بها امتنا ، بل على العكس اخذت تتطور مع تطوره هو ، ومـــع الانتصارات التي يحققها ، والجماهير التي يحشدها ، والطاقات الهائلة التي تلتف حوله .

وكانت الرسالة العربية تتدفق من شفته في كل كلمة يقولها وبشكل عفوي، وتبدو في كل موقف يقفه ، وفي مجمل حياته . واخذت هذه الرسالة تتكامل عن طريق نضاله الصامد ، ونضال الصامدين معه ، وبقي هو الينبوع الثر الصافي الذي يتدفق بالعطاء لأمته ، دون ان ينضب او يتعثر ، لانه وجد للعطاء ، يروي كل

مكان يصل اليه ليحيل صحراءه الى بساتين دائمة النضرة ، ويبشر بمبادئه وتعاليمه في كل مكان يصل اليه ، ليحيل المواطنين المستسلمين الى مناضلين ثائرين .

حين تدرس حياة هذا الرجل العظيم ، تدرس رسالة أمة .

ان آراءه التي اعلنها في تجهيز[1] انطاكية مع طلابه ومع الشعب المناضل في اللواء ، وما وصل اليه في (قرنايل) حين ارسى مبادىء عصبة العمل الثوري وآراءه بعد الهجرة وحتى وفاته تشير الى الرجل الواحد ، ذي الرأي الواحد بأمته ورسالتها .

منذا الذي يتصور ان آراءه قبل اربعين عاماً هي نفس آرائه بعد اربعين عاما ...

لقد كان يعزو تخلف العرب الى تمزقهم ، ويقول ان العرب حققوا رسالتهم حين كانوا امة واحدة ، وقوة واحدة ، وابتعدت عنهم الرسالة وسيطرت عليهم أمم العالم حين ابتعدوا عن معين ابداعهم وقوتهم وتفرقوا ... انه لانصر ولا قوة ولا رسالة للعرب الا في ظل دولتهم العربية الكبرى ، في ظل الوحدة العربية ، ولا وحدة الا اذا كان الشعب العربي فيها سيداً .

وكان حرباً عواناً على الاقطاع والرأسمالية والتخلف ، يعتبرهم عملاء للأجنبي ، ويجرّدهم من شرف الانتساب الى العروبة ، ويدعو الى اعادة حقوق الشعب اليه ، وذلك بامتلاكه حقوقه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ليكون سيداً على ارضه ، وكان يعتبر الشعب الكادح هو مادة نضاله ، لذلك فاء اليه ، وناضل معه ، واخلص له ، وبادله الشعب وفاء بوفاء ، وكانت هذه الدعوة وهذا النضال صورة الاشتراكية .

---

(١) المدرسة الثانوية ، وكان اسمها آنذاك « التجهيز » .

ودعا الى التحرر من ربقة الاستعمار ونفوذه ، وضمان كرامة انسانية الانسان ، بتعزيز حريته . واكد على التلازم بين حرية الوطن والمواطن .

ان رسالته في الوحدة ، والاشتراكية ، والحرية ، هي ارادة الثورة عنده ، وهي الرسالة التي حركت الطاقات الدفينة عند جماهيرنا في اللواء السليب ، وقادتهم الى المواقف الباسلة ، والبطولات الخارقة ؛ وهي الرسالة التي عرف بها وعرفت به ، وبقي ثابتاً عليها ، مخلصاً لها ، يستقطب المناضلين حولها ، يعطيها من فكره ونفسه وروحه ؛ لم يرتبط بعائلة خيفة ان تأخذ منه بعض تعلقه برسالته ، ولم يكتنز مالاً ، ولا بنى بيتاً ، لأنه كان يبني رسالته في عقول وقلوب المواطنين ، ولم يكن يهمه شيء في حياته الا مواقع امته ، ومقدار اسهامه في تقدمها ...

* * *

بدأت المعركة باسم العروبة وللعروبة ، وكأننا في اللواء نمثل ملايين العرب ، ونملك طاقاتهم وامانيهم ، وعلينا وحدنا تقع تبعة تجسيد هذه الاماني الى واقع حي .

ولم تكن علاقة الارسوزي بأبناء اللواء ، وبذويه ، افضل من علاقته بالمؤمنين بالقضية في أي مكان من ارض العروبة ، مؤكداً ان القرابة الحقيقية هي قرابة الفكر الواحد ، والنضال من اجل الهدف الواحد ، ولا قرابة امتن واعمق من رابطة القضية الواحدة .

كان يحدثني عن اللواء مثلما كان يحدثنا عن الوطن العربي والشعب العربي (الأصيل) والقضية العربية ينطلق من نفس مؤمنة .

كان يقول لنا فيما يقول :

« ان الاستعمار يحاربنا بضراوة في هـذا الجزء الصغير من الوطن العربي لا لأننا قوة كبرى ، بل لأننا ندعو الى وحدة العرب .

إن جميع دول الاستعمار تؤيد فرنسا في بطشها بنا، لأننا ان نجحنا، قضينا على امتيازاتهم في الوطن العربي .

الوحدة هي التي تخيف الاستعمار ، لاسيما اذا كانت مادتها الشعب العربي ، لا الحكام العرب .

لاعذر للعرب في ان لا يثوروا ضد المستعمرين في سبيل الوحدة .

لقد ابتعد العرب عن صنع التاريخ ، واصبحوا على هامشه لأنهم ابتعدوا عن ذاتهم ، عن معين ابداعهم ، عن كونهم عرباً ، عن كونهم أمة تعيش في وطن واحد .

لن يستطيع العرب ان يصنعوا الحضارة الا حين يكونوا اقوياء ، ولا قوة لهم الا في ظل الوحدة .

إن الاستعمار يتساهل في منح الاقطار العربية المتناثرة كل شيء إلا الوحدة ، فلا تغرنكم الانتصارات القطرية ، ذلك لأن النصر الكبير هو النصر القومي .

ألم تروا الاستعمار كيف يدعم الحكام العرب ماداموا يعاونون مصالحه في اقصاء الشعب عن قضيته القومية الكبرى ، والهائه بالمشاكل المحلية المفتعلة ! .

انه لايرى غضاضة من الانتصارات عليه في القطر ، وهو نفسه الذي كان يخلق الزعامات الكرتونية المهترئة مضيفاً عليها كل القاب البطولة فيبرزها بأحسن شكل مادامت في جو القطر الصغير وله .

أما حين تكون ثمة نأمة باسم العروبة وللعروبة فهو الحيوان الشرس الذي تعرفون ...

انظروا الى الاستعمار كيف يحارب الاحزاب القوميـة بشراسة محاولاً القضاء عليها ، أما حين يحارب الاحزاب القطرية فهو في حقيقة الامر يدعمها ويؤيدها بافساح المجال أمامها للانتصار عليه .

ألم تروه كيف يطارد القادة الذين يدعون الى وحدة العرب ليؤيد الآخرين بالمقابل !!..

ألم يخلق هو نفسه احزاباً قطرية ليفلسف القومية للقطر الصغير في سبيل تجزئة الأمة العربية الى قوميات ، وبعثرة جهودها ، كل هذا خشية نضال الوحدة .

الوحدة بالنسبة للعرب هي القدر ، وانهـا السبيل الوحيد الى كل انتصاراتنا القومية .

فاذا كانت البسملة عند شعبنا هي التي تطرد الجن والشياطين ، فالوحدة هي التي تطرد التخلف والمآسي من دنيا العرب .

إنها أقصى أمانينا القومية وقمة أهدافنا ، ولقد كنا نسميها في السنين العشر الأولى بـ (الامبراطورية العربية) ولكم كانت تهزنا هذه الكلمة ، لأن العصر آنذاك لم يكن يرفضها ، عكس ما هي عليه اليوم من وقرها للاذن وتأثيرها السلبي في النفس »

وفي معرض النضال من أجل الوحدة ، كنا نولي اهتمامنا الفائق للكيف لا الكم ايماناً منا بأن البناء الراسخ ، هو الذي يبنى بالحرص عليه ، والتخطيط له ، والسير الهادىء فيه .

زعيماً للنضال من اجل وحدة العرب كان زكي الارسوزي ، وظـل كذلك حتى آخر يوم من حياته .

وكان نضال الارسوزي متواصلاً لا يعرف الكلل في سبيل خلق الثوار وصقلهم . كان يولي عناية فائقة لارومة الثوار ومنبتهم ، واخلاقهم ، واصـالة سلوكهم ...

وكان يقول : « ما وزن انتسابنا الى الأمة العربيـة اذا لم نبرهن بنضالنا على هذا الانتساب !..

اله لاوحدة دون وحدويين ... »

يجب اعداد جيل الوحدة ، لكي يحققها بنضاله الدائب المستمر وتضحياته التي لاحدود لها .

إن صنع جيل الوحدة أهم من الوحدة نفسها ، لان الوحدة لاتقوم إلا به ، وحين تفقده تفقد وجودها .

الوحدة التي لاتتطور ولا تزدهر ، تبقى ضعيفة عاجزة معرضة لعبث المغامرين ...

وكان يقول : « لاخلاف في العروبة ، والخلاف فيا عداها » .

العروبة تؤكد الاخلاق والقيم ، وتصحح الاخطاء التاريخية والمواقف الراهنـــة .

انكم حين تختلفون عودوا الى العروبة تستفتونها الحل الصحيح .

والآن حين أعود بالذاكرة ثلاثين عاماً الى الوراء ، حين ابت لجنـــة الاستفتاء الممثلة لعصبة الامم ، الا ان تسجل المسلمين بطوائفهم ، والمسيحيين بطوائفهم ، والاتراك اتراكاً ، حرصاً من اللجنة على طائفيتنا ! .. اذكر ان الارسوزي أجاب آنذاك الجواب الهادىء الذي أقض مضاجع المستعمرين وزلزل كل مؤامراتهم ، واحبط خططهم الدنيئة . إذ قال لهم :

نحن عرب قبل ان نكون مسلمين أو مسيحيين ، فلنتقدم لنعلن قوميتنا العربية وحسب !...

وكان الموقف القومي الرائع الذي لم يشهد له التاريخ مثيلاً حين تقدم العرب فعلا الى صناديق الاقتراع بمختلف طوائفهم ليعلنوا انهم عرب وحسب..

البدايات

سليمان العيسى

الغابة العذراء يلفها الضباب ..

والمسافر المتعَب العطشان يقف على حدودها ..

يريد أن يدخل .. أن يتفيأ ظل فرع من الفروع . .

أن يستلقي على ذراع عشبة خضراء ..

أن يبل التعبَ والظمأ .. تعب الرحلة المرة .. وظمأ العمر بقطرة صفاء .. ونسمة نقاء .. على أطراف الغابة العذراء ..

قطرة صفاء .. ونسمة .. على اطراف الغابة العذراء . لم أتخير هذه الكلمات لأقول شيئاً عذباً رقيقاً .. لأوشي سطوري الأولى بألفاظ الشعراء .. اؤكد لك يا قارئي أنني تعمدتها تعمداً .. وأني – بعد ثلاثين عاماً – أجدني

ألجأ اليها .. التصق بها .. أشد نفسي شدا بجذورها .. لكي يبقى في حياتي شيء ثمين .. بعد أن أصبحت « الأشياء الثمينة » في حياتنا غريبة .. يتيمة يؤثر أصحابها حر السعير ، ولسع الهجير هرباً من « مطر ماوث » يلاحقهم لينزل عليهم « بركته » ، ويسبغ على أجسادهم « نعمته » .

لم أدق باب الموضوع بعد .

إنتظرني لحظة اذا شئت ..

فليس من السهل أن تقف على حدود غابة لفها الضباب ..

وأن تختار الغصن الذي تمد يدك اليه .. لتقطف أول ورقة . . وتبدأ حديث العمر .. حديث البدايات ..

من أين تراني أبدأ ؟

وعلى أي ينبوع من ينابيعي الأولى أقف لأغط قلمي ..

وأمضي في كتابة مقال !

تمنيت غير مرة لو أملك موهبة الرواية .. لأنسج من أحداث هذه الفترة قصة طويلة .. طويلة .. أضعها بين أيدي الأجيال العربية الوافدة ، يقرؤها ملايين الفتيات والفتيان وهم في مثل السن التي كنا فيها .. عندما اجتزنا هذه الفترة .. فترة الينابيع الأولى .. فترة البدايات .. فترة السنوات الحلوة المرة التي عشناها مع صانع البدايات .. مع أبي الينابيع الأولى .. مع زكي الارسوزي .

الارسوزي .. صانع بدايات .. مفجر ينابيع ..

غابة عربية عذراء .. نبتت فجأة على تخوم الوطن العربي الكبير .. على حدود التمزق والغربة والضياع في أقصى الشمال من هذا المحيط الهائل من الماء والرمل ، والشجر والبشر ، هذه الأمة العربية العظيمة ، هذه «المقبرة»

الضخمة التي تنهال على صدرها كل خناجر الموت منذ الف عام . . ولكنها لا تموت .. لا تستطيع أن تموت .

أتراني عدت الى الشعر ؟ معذرة منكم .. يا من لاتحبون الشعر . .

سألجم كل النبضات التي أخذت تتحرك في صدري ..

سأختار الطريق الهادىء الوديع ..

وأبدأ الحديث ...

. . .

كان ذلك منذ ثلاثين عاماً ونيف ..

ما أسرعَ ما تركض الأيام .. وتمضي السنون !

كنت طالباً في « التجهيز »، هذا هو الاسم الذي كنا نطلقه على مدارسنا الاعدادية والثانوية آنذاك .

كنت في صف « الكفاءة » على وجه التحديد ..

في مدرسة ماتزال تنتصب كالقلعة الصغيرة على كتف بَرَدى ، اسمها الآن « ثانوية جودة الهاشمي » او هو اسم جزء منها على الأصح . وليست المدرسة ما يهمني في هذا الحديث ..

فما اظنها كانت يومـاً لرفاق البدايات .. لتلاميذ الينابيع الأولى .. ما أظنها كانت اكثر من جواز مرور .

المدرسة التي وضعت في اعينيا النور .. وفي قلوبنا الحياة .. وفي أعماقنا اليقظة .. المدرسة التي أعطتنا « الفكرة » وجعلت من حياتنا « نسيج عقيدة » كانت السنوات الأربع او السنوات الخمس التي ضمنا فيها بيت صغير سأتحدث عنه عمـا قليل .. الى جوار معلم كبير هو موضوع

حديث الصمت المر ، لولا عدد مشكور من مجلة ثقافية تصدر في هذا البلد العزيز .

بيت صغير .. يحتل الزاوية التي تلامس الأرض من سلسلة بيوت في حي « السبكي » بدمشق .. تميز بابه القديم حتى الساعة حجرة واحدة ترتفع قليلاً عن الأرض ، تعد نفسها درجة ، أمر بها الآن في طريقي عجلان ، فما اكاد أقترب منها حتى أتوقف فجأة ، وأحس حنيناً في أعماقي يدعوني الى أن أجلس عليها ولو اختلست اللحظة اختلاساً ..

هذه الحجرة الصغيرة .. هذه الدرجة التي لا يملك بيتنا القديم غيرها .. هي « برقة ثهمد » ، هي « حومانة الدراج » هي « سقط اللوى » هي « الدخول » و « حومل » .. هي عندي وعند قبضة من رفاق الصبا ، أطلالنا الشاعرة .. وندوة سمرنا في العشيات . كنا نتقاسم الجلوس عليها في ليالي الصيف .. ليالي القمر ، والعطر ، والياسمين في دمشق .. يبدأ الجلسة رفيق الصبا وهيب الغانم ، بحديث عن التاريخ العربي ، تاريخنا الذي سنغير وجهه نحن الاطفال المشردين الذين لا يملكون ثمن عشائهم ، ولم تكن لتخالجنا ذرة شك في أننا سنغير يوماً هذا التاريخ .. سنحرك « المقبرة » الضخمة .. سنبعث فيها الحياة أغنى ما تكون الحياة .. وأجمل ما يكون البعث .. سنصنع الدولة العربية الاشتراكية الكبرى .. نحن الأطفال المشردين ، الجائعين ، الذين تعودوا في تلك الأيام — أيام الحرب والبؤس والحرمان — أن يبقوا يومين او ثلاثة أيام بلا طعام .. وهم سعداء أصفى ما تكون السعادة .. متفائلون أروع ما يكون التفاؤل .. أليسوا الذين انتدبهم القدر لبعث الأمة العربية .. لبناء الوطن الواحد العظيم .

يا لروعة الطفولة .. وصفاء الأحلام !!

الجوع وحده يستطيع أن يبدع .. أن يبني العالم من جديد .

لا تظنوا نوماً هانئاً على وسادة من ريش .. قادراً على أن يضيف شيئاً جميلاً الى هذا العالم ..

ما اظنه بقادر على أن يضيف غير البلادة والخمول ..

ولكن مالي ولهذا ؟

كدت أنسى البيت الصغير ، و « برقـــة تهتمد » ، وندوة السمر في عشيات الصيف .

ويتعب رفيق الصبا .. ونحن حوله جلوس على الرصيف ..

ويأخذ « شبابته » بين يديه ..

ويسمع القمر – وكان صديقنا الحميم – يسمع مواويل « شبابتنا » تتساح مع الياسمين ، وضوء القمر .. وآفاق المستقبل الذي ندق بابه بالشعر ، والحب ، والطفولة ، والجوع ، والايمان .

ساعات طويلة . أستطيع أن أقف على درجة بيتنا القديم .. وأتملى شريط الماضي ، وأوقظ الذكريات من ضباب الأعوام ..

ساعات طويلة .. أجتازها الآن لأدخل حرم الماضي ، لألقي نظرة على « محرابنا » القديم .

سؤال واحد يشب أبداً الى شفتي .. سؤال صغير : لِمَ لم يتحول هذا البيت الى متحف حتى الآن ؟ لِمَ لم يصبح ملكاً للتاريخ ؟

أتراني بالغت ؟. تجاوزت حقي قليلاً في السؤال ؟

أترك هذا المستقبل من دون تعليق .. نعم .. من دون أي تعليق ..

وندخل الآن .

ممر صغير ضيق .. يفصل بين ثلاث غرف متجاورة .. كنا نراها في تلك الأيام - قبل ثلاثين عاماً ونيف - رحبة واسعة ، واشهد - في غير ماحيطة ولا حرج - أنها ليست رحبة ولا واسعة ، غرف ثلاث تطل على شارعين . تلك كانت احدى مزايا البيت في نظرنا . نوافذ عديدة تفصل بيننا وبين الشارع ..

ولكن معظم زجاجها كان قد رحل عنها منذ امد بعيد ..

وحلت محله ألواح من الورق المقوى ، نلصقها هنا .. ونلصقها هناك ، ونكتب عليها أبياتاً من الشعر في مدح الورق المقوى الذي يقينا الشمس والغبار ، وهجـاء الزجاج الذي يأذن للشمس أن تسكب حرها على رؤوسنا طوال أيام الصيف .

الغرفة الأولى كانت تخص الاستاذ ..

ذلك هو الاسم الذي عرف به زكي الأرسوزي طوال حياته بين كل من عرفوه .

في هذه الغرفة كان الأرسوزي ينام على السرير الوحيد الذي عرفه البيت آنذاك . أطلال سرير .. كان في يوم من الأيام متماسكاً ثم تعب ، فهبط سطحه وغار .. حتى رأى الاستاذ نفسه يوماً على الأرض وحول السرير الغائر ، وفي أرض الغرفة ، وعلى النافذة .. كانت عشرات الكتب بالفرنسية والعربية تنتشر بلا نظام ولا ترتيب .. كتب في الفلسفة ، كتب في الأدب ، كتب في اللغة .. في التاريخ .. في السياسة .. في الاقتصاد . كان الاستاذ يستعيرها من المكتبات .. من أصدقائه .. من كل مصدر تصل اليه يداه .. ثم يقرأ . ويلخص .. ويشرح لتلاميذه كل ما تصل اليه يداه .. ولكن لهذا الموضوع مكاناً آخر من الحديث فلأتجاوزه الآن .. لأواصل طوافي في « محرابي » القديم .

بقيت غرفتان .. هما كل دنيانا التي كنا نمد منها رؤوسنا الصغيرة لننقذ الأمة العربية ، ونغير وجه التاريخ .. بإيمان لاتخالجه ذرة من شك ، وبراءة تتحدى الرغيف الأسود الرهيب ، وتسخر من الجوع ، تحوله الى قصائد ضاحكة ، وتفتح ذراعيها للحياة ، للغد العربي المشرق العظيم .

في هاتين الغرفتين البائستين ، المحطمتي النوافذ ، الخاليتين من كل ما يمت الى أثاث البيوت بنسب . كنا نعيش . قبضة من الرفاق .. من الطلاب اللوائيين .. مرة يقتصر عددنا على خمسة .. ومرة يتكاثر العدد حتى يبلغ العشرة أو يزيد .. نمد حصيرنا على الأرض .. نفترش ما يشبه الفراش .. ونتخذ من كتبنا وسائد ، ونتبادل المعطف الوحيد الذي كنا نملكه في الشتاء .. ونملأ جرتنا كل يوم من عين « الفيجة » في حي « الشعلان » ، فلم يكن في البيت كله حنفية ماء ..

في هاتين الغرفتين كنا ندرس ، ونأكل ، وننام ، وننظم الشعر ، ونتغزل بالسمراء ، ونعقد الاجتماعات ، ونناقش مصير أمتنا ، وندعو رفاقنا وأصدقاءنا من مدارس دمشق ، وجامعتها ليشاطرونا المسؤولية ، ويبدأوا معنا الطريق .

اجتماعات .. مسؤولية . طريق .. كلمات ما تزال غامضة ياقارئي .. أنا واثق أنك لم تعرها كبير اهتمام وانت تقرأ هذه السطور .. ولك العذر كل العذر .. فاني لم اوضح شيئاً منها بعد .. لم أدخل صميم موضوعي حتى الآن .. لم أتحدث عن الأرسوزي .. لم اذكر ما ينبغي أن يذكر في هذا البيت الصغير .. في هذا التاريخ المجهول من حياة « الموجة » التي نبتت هنا .. وامتدت عبر النوافذ البائسة ، المحطمة ، لتصبح بعد ذلك « سلطة » تحكم قطرين عربيين منذ أعوام ، وجزءاً من تاريخ العرب الحديث ، بحلوه ومره ، ونقائه وكدره ، ومؤمنيه ومزوّريه .

في هذا البيت الصغير عشنا مع المعلم الكبير ..

أربعة أعوام .. أو خمسة .. – نسيت العدد المضبوط –

عشنا مع استاذنا زكي الأرسوزي .

تقاسمنا رغيف الحرب الأسود ..

كانت الحرب العالمية الثانية تطحن العالم .. وتطحننا معه .. في هذا البيت التقينا – مجموعة من الطلاب – اكبرنا في كلية الطب ، وسائرنا في المدرسة الثانوية ، نحمل على اكتافنا الصغيرة ، التي لاتكاد تجد ما يسترها من الثياب ، آمال العروبة وآلامها ، نحمل أمتنا العربية الممزقة المتخلفة المستعبدة ، ونحاول أن نرسم لها الطريق .. طريق البعث والخلاص .

مرة أخرى .. أراني من غير قصد أهتف :

بالروعة الطفولة .. وصفاء الأحلام !

كان زكي الارسوزي مدرستنا ..

كان أبانا الذي في الأرض ..

كان غذاءنا اليومي ..

كان النسغ العربي النقي الذي يسري في العروق الفتية العطشى ، يسقيها التمرد ، ويزرع فيها الأمنية الكبيرة ، ويعلمها رفض الواقع وإدانته ، يعلمها الحياة في مستقبل الأمة ، في طاقاتها الكامنة ، في غدها العظيم الذي سيأتي لامحالة ..

ومرحباً بعد ذلك برغيف الحرب الاسود ..

مرحباً بالجوع ، والفقر ، والعذاب ..

مرحباً بكل ما في الحياة من قسوة ، وظلم ، وسواد ..

سنواجه كل ذلك بمثل هذه العبارة يخطها احدنا - صدقي اسماعيل - على جدار الغرفة البائسة ، بقلم الرصاص :

« نحن هنا نعيش في ظل الدولة العربية الكبرى ».

سنواجه قدرنا المحزن بصفاء « الفكرة » الضخمة ، التي نذرنا طفولتنا لها .. سيتحدى « الحواريون » الصغار كل الآلام ، وسيختارون الطريق الوعر ، طريق الشقاء بأيديهم .. لأنه طريق الرسالة الوحيد.

هكذا كان الاستاذ يقول ..

أيها الشباب .. لكي نبدأ البعث العربي لابد أن نحمل خشبة الصليب.

ونمضي الى مدرستنا في الصباح .. نرتجف من البرد في أيام الشتاء .. كنت أشد رفاقي إحساساً بالبرد .. يذكرون ذلك جيداً حتى الآن .. يذكرون « البيجاما » المتواضعة التي كنت ارتديها تحت « بنطلون » اكثر تواضعاً منها .. أتقي بها صقيع الطريق .. وفي المدرسة .. كنا ستة او سبعة من الرفاق نحيل « التجهيز » ثورة دائمة ، ماتكاد تهدأ في يوم ، حتى تشتعل في اليوم الثاني .

كانت كلمات الارسوزي التي نحملها الى رفاقنا أشبه ماتكون بقطرات المطر الكبيرة تتلقفها أرض يقتلها العطش منذ أجيال ..

الاستعمار الفرنسي ، والاستعمار البريطاني لابد أن يخرجا من أرض العرب .

حكام العرب كلهم خونة ، ملوثون ، متآمرون .. هكذا بلا تحفظ .. ولا استثناء ..

الذين يحكمون الأمة العربية دخلاء عليها ، غرباء عنها ..

الملايين العربية لاتملك من أمرها .
ولا من ثروات أرضها شيئاً ..
لابد أن نعيد النظر في كل شيء ..
لابد أن يتغير كل شيء ..
ونحن البداية .. نحن الطريق ..

* * *

كنا ننقل كلمات الاستاذ الى كل طالب ، الى كل ركن ، الى كل زاوية .. كانت تؤلف موضوعات الانشاء الذي نكتبه ، والأدب الذي ندرسه ، والنقاش الحامي الطويل الذي لم يكن ليهدأ بيننا وبين زملائنا الطلاب ، بل بيننا وبين اساتذتنا في معظم الأحيان .

محمد البزم - رحمه الله - كان من أقرب الاساتذة الى قلوبنا . كان عربياً صميماً يرى فينا بقايا من الصحراء تبحث عن نفسها في زحام القرن العشرين . كان يحبنا كأولاده ، ويرى فينا صورة العروبة الصافية التي كان يحملها لغة وبياناً في صدره ويغرسها في تلاميذه . استاذ آخر من اساتذتنا - ودعني من ذكر الاسماء - كان يرى في دعوتنا القومية تطرفاً وخروجاً على القيم المتوارثة ، والسنن المألوفة ، وينصح الينا أن نثوب الى رشدنا .. وأسأل عنه بعد أعوام لأعرف أن الاستاذ الحريص على القيم المتوارثة ، والسنن المألوفة ، قد استقر في باريس ، واتخذ التبعية الفرنسية جنسية له ، ومايزال موظفاً مرموقاً في « اليونسكو » حتى الآن .

وتنتهي دروس الصباح .. وتهدأ المعركة بيننا وبين العالم الذي نريد نسفه وتغييره .. ونعود الى بيتنا الصغير لنجد أستاذنا الارسوزي يستقبلنا على

الباب بابتسامته الدائمة ، ووجهه المشرق كوجوه الأطفال ، عينان صافيتان تشعان حباً وأملاً وتفاؤلاً بالمستقبل .. ومُحيّا فيـــه طهر الشهداء ، وبراءة القديسين .

كان الارسوزي يجيء لنا طعام الغداء بيديه في معظم الأيام .. وطعام الغداء كلمة كبيرة على « حساء العدس » الذي كان يطبخه لنا الاستاذ ، يعاونه أحياناً من يتخلف منا في البيت ، وربما ساهمنا جميعاً في إعداد « الوجبة » الطريفة .. نضع العدس مع الماء البارد في آن واحد .. ثم نوقد النار .. وننتظر الساعة تلو الساعة .. عدس وماء بارد لاينضجان .. الى الطعام ياشباب .. أياً كانت النتيجة .. لايمكن أن ننتظر هذه « المخلوطة » اللعينة اكثر مما انتظرنا ..

جاءنا يوماً صديق مترف في زيارة للاستاذ عند الظهر .. كنا قد تحلقنا حول إناء « الحساء » الوحيد في البيت .. ومعنا الارسوزي ، قائد ثورة اللواء ، أول حركة عربية جماهيرية في سورية ، وبدأنا « الغداء » .. ووقف صديقنا المترف ينظر .. يتفرج علينا .. أرغفة الخبز الاسود الذي نحصل عليه بالبطاقة أيام الحرب يابسة ماتكاد تتكسر في ايدينا .. ولكننا نفتها بسرعة ونحن نتبادل النكات ، ثم نلتهم مافي الإناء .. شيء يؤكل او لا يؤكل .. ذلك آخر ما كنا نشغل بالنا بالتفكير فيه ، ثم نلتفت الى صديقنا الزائر لنتناول « قيافته » و « هندامه » الأنيق بجزمة من أبيات الشعر الساخر نرتجلها على الفور ، ونجعل منها « فاكهة » الغداء غير الشهي .

ويضحك صديقنا المترف .. يضحك معنا .. ولكنه ينصرف بعد قليل وهو يغمغم : انبياء صغار .. أنبياء مجانين ..

ونستريح قليلاً .. ويبدأ الارسوزي الدرس .

على كراسي صغيرة واطية من القش ، على حافة النافذة ، على الأرض ، كنا نتحلق حوله ، نترك له كرسي القش الوحيد الذي يرتفع قليلاً ويملك مسنداً للظهر .

وينساب الحديث عذباً ، عميقاً ، واضحاً ، تزدحم فيه الصور الحلوة ، والتشبيهات الرائعة .. لَشَدّ ما كانت صور الارسوزي وتشبيهاته الحية الجميلة تترك أثرها في نفوس سامعيه .. يعرف ذلك كل من استمعوا اليه .. في رحلة العمر الدامية .. وهم كثيرون :

كان يحدثنا عن ماضينا العظيم ..

عن عبقرية الأمة العربية التي تتجلى في لسانها ..

عن الطاقات الهائلة التي تكمن فيها .. ولكنها هامدة خامـــدة .. تنتظر من يهزها ، ويفجرها

كان يحدثنا عن الحضارة الحديثة ..

كيف ولدت الثورة الفرنسية ..

كيف بعثت الأمة الألمانية ..

كيف نهضت ايطاليا ..

كيف قفزت اليابان من ظلام الاقطاع والتخلف الى قلب الصناعة في القرن العشرين ..

كان يشرح لنا نيتشه ، وفيخته ، وهيجل ، وماركس ، وشبنجلر ، وبرغسون .. ونحن طلاب في الثانوية ..

لشدّ ما كنا معجبين بهذا الفيلسوف الالماني العظيم « فيخته » في تلك الفترة من حياتنا !

إنني ما أزال احفظ مقاطع كاملة من كتابه الشهير « نداءات الى الأمة الألمانية » .. حتى لقد ترجمه واحد من رفاقنا الكبار الى العربية .. ولكن الترجمة لم تنشر في يوم من الأيام .

وينتهي الدرس .. وينهض الاستاذ ليخلو الى غرفته ، وسريره الغائر ، يواصل القراءة ، وقلما يرتاح . يكتب باستمرار .. يعلق على كل مايقرأ .. اكثر من عشرين دفتراً صغيراً ينتثر حوله .. يخط فيها ملاحظاته ، ويسجل خواطره بخط رديء طالما أرهق عيوننا في فك طلاسمه عندما كنا نتحمس لتبييض مايكتب الاستاذ .

كان الارسوزي يذهب الى المقهى كثيراً . قبل الظهر .. بعد الظهر .. في أية فرصة من فراغ تتاح له . عادةٌ رافقته طوالَ حياته . كان يحب الناس .. لايستطيع أن يعيش بعيداً عن أناس يتحدث اليهم ويتحدثون اليه .. فاذا مارأيناه ذات يوم ينقطع عن المقهى ويحجر نفسه في غرفته عرفنا السبب .. وفي صمت وخشوع كنا نجمع مافي جيوبنا من نقود ، عشرين قرشاً سورياً .. ربع ليرة سورية .. ندسها في جيب سترته دون أن يشعر .. أجرة المقهى في تلك الأيام .. ثم نعود الى دروسنا والسعادة تغمرنا .

* * *

الغابة العذراء يلفها الضباب ..

والمسافر المتعَب العطشان يقف على تخومها ..

يريد أن يدخل .. أن يتفيأ ظل فرع من الفروع ..

أن يبل التعب والظمأ .. بقطرة من صفاء ..
وتنهمر القطرات .. سيلاً من الذكريات ...
شريط بكر من الأحداث يبقى في طيات الزمن ..
في حنايا التاريخ .. لاتمتد اليه يد .. ولا يتناوله قلم ..
وأقسم ان التاريخ سيلهث يوماً وهو يبحث عن حادثة صغيرة ..
عن لقطة عابرة من هذه الأشياء التي أوقظها من رقادها الآن ..

مرة اخرى .. أتمنى لو أملك موهبة الرواية لأنسج من أحداث هذه الفترة قصة طويلة .. طويلة ، ولو لم يقرأها أحد ..
ولكن الأمنية ترتد .. لتتضاءل سطوراً تقفز من اعماق الذاكرة في مقال متواضع عجلان .

. . .

الحرب العالمية الثانية دائرة الرحى .. تطحن العالم .. وتطحننا معه .. والأيام القاسية تمضي .. وحساء « الماء والعدس » يتكرر مرات في الاسبوع ، نسد به رمقنا .. والبيت الصغير يزدحم بالطلاب يوماً بعد يوم .. يتوافدون إلينا ، كلما أتيحت لهم فرصة ، من التجهيز ، من الجامعة ، من المدن السورية الأخرى ، من الريف .. طـــلاب في مقتبل العمر سمعوا بدروس الأرسوزي .. ودعوة الأرسوزي العربية الجديدة .. فجاؤوا يتعرفون الصوت الجـــديد الجريء .. بعضهم كان يخرج حذراً ، متحفظاً ، يخاف أن يلمس النـــار الجديدة التي تحرق الأصابع ، وبعضهم يسجل كل حرف يسمعه ، يحفظه في قلبه ، يلتصق به التصاقاً .. ثم يقرر بينه وبين نفسه أن يكون من تلاميذ هذا « الصوت الصارخ في البرية » .. من تلاميذ الأستاذ .

هنا ألتقط أنفاسي . وأتوقف قليلاً . لابد أن أختار من شريط الذكريات، أهم الأحداث وأخطرها .. لابد أن أختار .. وإلا طال الحديث .. وتاه المسافر في ضباب الغابة العذراء .

كنا ذات مساء مكبين على دروسنا .. في بيتنا الصغير .. ستة أو سبعة من الطلاب ندرس معاً .. ريح الشتاء تصفر من حولنا . والبرد يتسلل إلينا من النوافذ لايرده الزجاج المكسور ، ولا ألواح الورق التي أحكمنا إلصاقها ، كان الصمت يخيم على الحجرة الصغيرة ، على الرؤوس الصغيرة ، حين دخل علينا أستاذنا الأرسوزي - رحمه الله - تسبقه ابتسامته المشرقة ، ومعه أكبر رفاقنا آنذاك : وهيب الغانم ..

لاأذكر تاريخ ذلك اليوم ، فلم نكن لنسجل مثل هذه الأحداث، ونحن طلاب في الثانوية ، ولكن رفاقنا الكبار يذكرونه ويعرفونه بلا ريب ..

كان يوماً من شتاء (١٩٤٠) ..

ورفعنا رؤوسنا ، وتوقف الدرس ..

وبادرنا الأستاذ الأرسوزي بقوله :

لقد أنشأنا اليوم حزباً عربياً جديداً .. لقد أسسنا حزب «البعث العربي» .. رفاقكم في الجامعة سيتصلون بكم ، ويوزعون عليكم المهات .. كل منكم - بالطبع - عضو في هذا الحزب ، حزب البعث العربي، منذ الآن . هيئوا أنفسكم للرسالة .. واستعدوا للعمل . لقد قررنا ان نفتح صفحة جديدة في تاريخ أمتنا الحديث .. قررنا أن نبدأ عملياً بناء الوطن العربي الواحد ، والدولة العربية الواحدة . أفكارنا التي حملناها في اللواء سنترجمها الآن الى عمل تاريخي منظم .. الى حزب يضطلع بالمسئولية،

التحرير سبعين مليون عربي ـ هكذا كان سـكان الوطن العربي في نظرنا آنذاك ـ

العرب أمة واحدة ..

والوطن العربي وحدة لاتتجزأ ..

وجداننا القومي هو مصدر مقدساتنا، عنه ينبثق فكرنا وسلوكنا، وبالنسبة إليه نقدر قيم الأشياء .

وننسى الكتب مفتوحة بين أيدينا .

وتتسمر عيوننا على المعلم يزف إلينا بشرى الولادة التي طالما حلمنا بها .. ويواصل الأرسوزي حديثه عن الحزب الجديد الذي تأسس في ذلك اليوم ، ونحن نشرب كلماته بأعيننا .. ويتعب بعد سـاعتين ونيف من الحديث ، فيتركه التلميذه الكبير وهيب .. كان طالبـاً في كلية الطب يومذاك .. وتوزع علينا المهمات بالفعل .

سنكون نحن مسؤولين عن طلاب التجهيز .. وسيتولى غيرنا الدعوة في الجامعة والثانويات القليلة الأخرى في دمشق .

ثم يعود الأرسوزي ليقول في ثقة البحر ، وهدوء التاريخ :

ولقـد قررنا أن ننشيء جريدة تنطق باسم الحزب . ولكن أسبوعية مؤقتاً كي لاتأخذ من دراستكم اكثر مما ينبغي ، وسمينا الجريدة باسم الحزب الجديد : البعث.

ستحررون فيها جميعاً .. ستتدربون على الكتابة .. الكتابة تدريب ومران .

جربوا أن تنقلوا افكارنا الى كل انسان .. الى كل طالب في هـذا الوطن .. الى كل عامل .. الى كل فلاح .

لاتقفوا كثيراً عند المثقفين.. سيضيعون وقتكم بالحذلقة.. والجدال الفارغ العقيم .. لأنهم لا يريدون أن يعملوا .

سنعيد تجربة اللواء على مستوى الأمة ..

وسيكون البعث العربي طريق الخلاص .

نريد دولة عربية كبرى حديثة ، تنسخ كل عهود الظلام.. تتجاوز عصور التخلف .. تضع أمتنا العربية في قلب القرن العشرين .

سنجد هويتنا العربية في ضوء الحضارة الحديثة ..

سنعيد النظر في توزيع الثروة ..

سنقلب هـذا المجتمع الاقطاعي المتفسخ الى مجتمع اشتراكي عربي تسوده العدالة ، وتزدهر فيه الصناعة .

سنناضل لتكون الفرص متكافئة أمام الجميع .

وفي زحمة التيارات والمذاهب التي تصطرع على هذه الأرض ..

لن ننسى أصالتنا .. سنظل أبداً نصر على هويتنا العربيـة .. وطابعنا القومي الأصيل .

* * *

شيء أشبه بالسحر كان يتموج في تضاعيف الكلمات ..

عندما كان الارسوزي يتحدث في تلك الحقبة من الزمن ..

كانت اللفظة تعني أكثر من صوت ، ودلالة ، ومعنى ..

كانت تاريخاً طامناً ينبض ، ويتحرك .

كانت رسالة مقدسة على شفتي مبشّر قديس ..

وتتابع عيوننا الحديث ، تشرب كلماته حرفاً حرفاً ..

ويواصل الارسوزي رسم الخطة ، وتوزيع المهمات :

ستصدر جريدة « البعث » بعد أسبوع .

وهيب يجمع المقالات .. وينسقها ..

وسليمان يكتبها بخط يده .. خطه واضح .. ولغته جميلة ..

تلك كانت شهادة الاستاذ في تلميذه كاتب هذه السطور ..

* * *

وصدر العدد الأول من « البعث » بعد اسبوع .

صدر في ست عشرة صفحة من القطع الكبير ..

مكتوبة كلها بخط اليد .. خط سليمان العيسى .. الطالب في التجهيز ، « ثانوية جودة الهاشمي » الآن .

نسخة واحدة مخطوطة .. مزدانة بالرسوم ..

بريشة الفنان المرحوم : أدهم اسماعيل ، طالب البكالوريا يومذاك .

نسخة واحدة كان علينا أن نطوف على البعثيين .. والاصدقاء البعثيين جميعاً في الجامعة وفي التجهيز .. بل في كل مكان يمكن أن يصل اليه العدد اليتيم ..

وتوالت بعد ذلك أعداد « البعث » .

كلها على هذا المنوال .

عشرة أعداد .. خمسة عشر عدداً

مرة أخرى .. تغيم الذاكرة في ضباب الغابة ..

وأنسى الرقم المضبوط ..

أين استقرت تلك الأعداد المكتوبة ..؟

وعند من انتهى المطاف ؟

لا يدري أحد ..

بعض « الحواريين » القدامى يعطون أغلى ما يملكون لو يظفرون يوماً بهذه « الوثائق » البسيطة الغالية .. بهذه « القطرات » الأولى من الدم والدمع والجهد في طريق البعث الدامي الطويل .

* * *

وتتوامى أنباء الحزب الجديد الى مسمع «السلطة» والحرب يومئذ دائرة .. و « الانتداب الفرنسي » جاثم على الصدور ..

ويداهم رجال الأمن بيتنا الصغير ضحى يوم من الأيام .. ونعود من المدرسة .. لنجد أوراق أستاذنا الأرسوزي و كتبه مبعثرة هنا وهناك .. ونسأل بلهفة عن الاستاذ فيخبرنا الجيران أن رجال « التحري » قد ألقوا عليه القبض .. وقادوه الى التحقيق .

وفي اليوم نفسه نعلم ان سلطة الانتداب العسكرية قد أمرت بنفي الارسوزي الى اللاذقية .. وكان عليه ان يقطع الطريق كله سيراً على قدميه يرافقه « دركي » على حصان .

في مساء اليوم الثاني كان اول منشور ثوري أصدره حزب « البعث العربي » يوزع في انحاء دمشق .. في شوارعها ، في حاراتها الضيقة ، في كل زاوية يمكن أن يصل اليها « الحواريون » الصغار .. كان عنوان المنشور — مايزال حتى الساعة ماثلاً أمام عيني — يقول :

« اخرجوا من بلادنا أيها الفرنسيون ! »

وعدنا الى بيتنا الصغير لنجد رجال الأمن بانتظارنا .. القوا القبض على ثلاثة منا .. وتوارى الباقون ..

وكنا أول ثلاثة من البعثيين دخلوا السجن ..

هل تريـــد الأسماء ؟ كان الثلاثة : مسعود الغانم ، وسليمان العيسى ، ودرويش دياب .

* * *

نحن الآن في أوائل حزيران من عام ١٩٧١ .

شريط الدمع والدم يضطرب أمام عيني ، يتململ على قلبي .. لايريد أن يستيقظ ليفتح عينيه على اوائل حزيران ..

اوائل حزيران غصة مرة في صدري .. في صدرك .. في صدر كل عربي ..

غصة مرة .. في صدر البدايات ..

دمعة مرة تختنق في عيني ..

لا أريد أن أواصل الحديث .

لا أستطيع أن أواصل الحديث .

في البدء كان المعنى

أنطون المقدسي،

ثلاثين عاماً قضيتها في صحبته ، ثلاثة منها لازمته فيها كما يلازم الانسان ظله ، أتركه مع الظلمة لألقاه مع النور ، وينقضي نهارنا ونحن نلتقط الحادثة العادية فنطوف معها عبر الزمان والمكان ، نسائل الانسان وأحداث الانسان عن معناه ومعناها ، نثير الفكرة تلو الفكرة لننفذ منها الى أغوار الوجود .

كنت أفارقه يوماً او سنة ، وربما سنوات ، فيصحبني في حلي وترحالي ، أتحدث اليه ويتحدث إلي ؛ تتراكم المشكلات فأناديه ، وتتسارع الأحداث فأستعيد أقواله ، وأعود وكلي حنين الى صوته يغمرني بدفئه ، وإلى خياله أطير معه في أرجاء العالم المنظور وغير المنظور ، وإلى ذكائه يبدع الصورة تلو الصورة والأسطورة بعد الأسطورة ، والى عقله يستنبط الفكر غزيرة مبتكرة . فقد

كان ينبوعاً متدفقاً من المعاني يستقطبها من الملأ الأعلى ، ويجسدها في أخيلة تملأ عالمي فكراً وبهجة ، وقلبي حكمة وفرحاً ، ونفسي فلسفة وشعراً .

وما أزال حتى الآن أراه أمامي بملء هامته فوق الزمان وتقلباته ، يتحدث فأفتح أذني ، ويقول فأتعلم

عرفته أكثر ماعرفته في الخمسينات ، ذلك الفجر الذي انبثقت عنه سورية الحديثة .

كان هذا القطر إذ ذاك يتمخض عن أحداث جسام ، فالنفوس نضرة متفتحة ، والقلوب مترعة بالأحلام الذهبية ، وكان دمشق في عرس ، ترتدي كل يوم حلة جديدة تزيدها رونقاً على رونق .

كان قد وضع عام ١٩٥٢ الخطوط الأولى لفلسفة خرجت كاملة من رأسه كما خرجت أفروديت من رأس زفس .

ويقضي قرابة سبع سنوات يتأمل فيها في تجاوب مستمر مع الأحداث العربية والعالمية ، وفي حوار لا ينقطع مع تراث الأجداد . يطوف الشوارع ، يرصد فيها حركات الناس ، ويصغي الى اقوالهم في دهشة الطفل وفي براءته ، أو يجتمع اليهم أين وأنى اتفق معلماً ذا سلطان ، يعلم ويتعلم ، فينمو كما تنمو الزهرة ، كل ساعة تتفتح عن لون مبتكر وتفوح بأريج جديد .

واليوم ، إذ أتحدث عنه ، أراني اتساءل عنه كما في اليوم الأول الذي عرفته فيه . اتساءل عما قال ، عما يمكن ان يقول ، وعن معنى القول الذي قال . اتساءل ما اذا كان فيلسوفاً أم شاعراً ، قائداً أم مربياً ، بطلا ام فناناً .

فقد كان ، وسيبقى ، سراً من أسرار هذه الأمة الفريدة في مصيرها ، تكبو فيظنها الأغيار قد انطفأت ، وتستيقظ فجأة فاذا بها جذوة تلتهب عطاء .

الحدس الأول

في البدء كان المعنى ، والمعنى تجسد صورة تجلى بها في عالم الشهود .

هكذا علمت اول ماعلمت .

وكانت اول عبارة خطها قلمك لتنشر : « خيل لأجدادنا أن النجوم نوافذ يشرق منها المعنى (الاله) بنوره على الكائنات »[1] .

فالموجودات (الطبيعية منها والانسانية على حد سواء) ، وان كانت صوراً متباعدة في المكان ، متناثرة في الزمان ، فهي واحد في مصدر إنبثاقها، وفي أعماقها نزعة تتطلع نحو هذا المصدر ، إذ أن كلا منها آية تشير الى حكمة الذي أوجدها وتهدي اليه ، تدل على ذلك أسطورة آدم (من الأديم وقوته الأدامة) جبله الله من تراب الأرض ثم نفخ فيه من روحه فجعله على صورته ومثاله[2] . فالناس متساوون في مصدر إنبثاقهم ولكنهم متفاوتون في صبوتهم .

والوجود (من وجد ، مصدره الوجد ، ومنه الوجدان والتواجد) وحدة حية ذات قطبين ، المعنى والصورة ، المعقول والمحسوس ، الملأ الأعلى والطبيعة . الأول بمثابة الروح ، والثاني بمثابة البدن . يقابلها في الوجدان الفارق بين الهدف وغايته ، بين المفهوم ومعناه ، بين الطبيعة والحقيقة ، بين الناسوت واللاهوت[3].

والوجود من ثم مثالي البنيان ، المادة حده ، والمعنى قوامه وروحه ، والمعنى نور وإبداع يضطرم فتزول الحدود ، وتخمد جذوته فيتقلص ويتقوقع .

---

(١) العبقرية العربية في لسانها ص ١٣ . فكر زكي الأرسوزي حاضر في كل عبارة تصدر عنه . واذا كنا نحيل القارىء الى مرجع ما ، فعلى سبيل المثال والتدليل ، لا من قبيل الحصر والاحاطة .

(٢) المصدر ذاته ص ١٤ .

(٣) المصدر ذاته ص : ٤٤ – ٤٥ رسالتا الفلسفة والأخلاق ص ٣٦ .

مثله في ذلك مثل الأنشودة ، تشتد فاذا بها لامتناهية ، وتتراخى فيعتريها الوهن وتصبح صماء .

والوجود أخيراً حياة ، والحياة « منظومة » مغلقة في جميع الأحياء إلا في الانسان «[1] حيث أنشأ فسحة رحمانية هي فسحة الوجـــدان ، فيها ينفصل الانسان من مصدر وجوده ، وفي الوقت ذاته يتصل به . فالأحياء ، تنشأ كلها رسماً (ومنه الرشيم في الجنين) يتضمن مقومات وجوده[2] وتتكامل تدريجياً إذ تستمد نسغ حياتها من البيئة ، وينشيء كل منها بدنه نقطة إرتكاز مادية يرقى بالاستناد اليها نحو آيته .

على هذا الشكل يتكون الانسان وتتكون مؤسساته الاجتماعية العرف والأخلاق اللغة والفقه ، القول والعمل ، الدولة والأمة[3] . « الأمة من المرحلة التاريخيـــة كالبذرة من موسمها بنمو كل منهما بنمو العلاقة بينه وبين بيئته الخاصة . »[4]

وعلى هذا الشكل أيضاً تنشأ العلاقة (علاقة تواجد وتعاطف) بين الأنا والأشياء (الأنام) ، بين الولد وأهله ، بين المرأة والرجل ، بين المبـــدع وإبداعه[5] .

فالوجود في الانسان وجدان (وَجْد) يتحول نحو البدن فترديه الأهواء

---

(١) رسالتنا المدنية والثقافة ، الجزء الأول صفحة ١٣ .

(٢) العبقرية العربية في لسانها ص ٤٣ و ١٣٠ .

(٣) العبقرية العربية ص ٤٣ — ٤٤ .

(٤) رسالتنا المدنية والثقافة الجزء الأول صفحة ٣ .

(٥) الجمهورية المثلى ص ٥٣ — ٥٥ .

وتغود به (الى أرذل العمر) ويستجمع ذاته فـــاذا به يرقى صعدا نحو مصدر إنبثاقه .

فالتردي (أو التخلف كما يقولون اليوم) ليس في حقيقته حادثة زمنية أو إجتماعية ، وليس تقصيراً في المعرفة ، ولا يقاس بمقاييس إقتصادية ومادية ، وانما هو تباعد بين قطبي الوجود ، بــين الصورة والمعنى ، ينحجب هذا عن النفس فتصبح تلك غاية بذاتها [١] .

والخطيئة حياد عن الخط .

والشر زيغ عن الصراط المستقيم ، صراط العناية رسمته في الكائنات وفي نفس كل منا .

فالانسان – كل انسان – في نظرك مدعو الى البطولة ، تدفعه نحوهـا أو تجذبه اليها نزعة قائمة في صميم الوجود محرضاً داخلياً ، وفي قمته هدفاً أسمى . فكأن البشر في سباق ، منهم من يسقط على الطريق ، ومنهم من يجتاز بعضه ، والذي يدرك القمة يصبح نموذجاً يحتذى . ذلك هو البطل أو النبي ، شفت نفسه وعلت همته فارتقى الى الينبوع الأول الذي فاضت عنه الآيات ، وأصبح ابن العناية البكر ، كما كنت تريد أن تكون . [٢]

ذلك كان الحدس الأول الذي صدرت عنه فلسفتك .

وهكذا كنت تعلم .

انطلقت من تجربة اللواء وسعتها وصعدتها فاذا بها تجربة الأمة العربية ورسالتها ، تجربة الانسان ، حقيقة الوجود .

---

(١) عبقرية ص ٩٦ رسالتنا المدنية والثقافة الجزء الأول ص ٣٥

(٢) عبقرية ص ٢٠٤ – ٢٠٥ ، رسالتنا الفلسفة والأخلاق ص ٦ – ٧ .

وجود ، المكان والزمان نسيج علائقه في الحياة الدنيـــا ، قمته وغاية صبوته الاله معنى ، ورائده البطل [1] ...

* * *

الفلسفة العربية

وتنشر عام ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين (١٩٥٤) رســـالة الفلسفة فتحدد في أسطرها الأولى ، بلهجة جازمة ، الخصائص المميزة للفلسفة العربية في ثلاثة مبادىء أساسية :

مدخلها رحماني ،

نهجها فني ،

غايتها الذات ،

ثم تضيف : « وانها نظرة مستوحاة من الحياة » [2]

ذلك أنك تعتبر التجربة الرحمانية الوجدانيـــة نقطة إنطلاق وحيدة وفريدة لكل مشروع فلسفي ، لا بل لكل انشاء فكري . لأن الفكر يستعيد على مستوى القول ماأنشأته الحياة على شكل عفوي [3] . وتحل بواسطة التجربة الرحمانية ، الإشكال الذي مازال تتعثر فيه الفلسفة منذ نشأتها إلى أيامنا ، ألا وهو العلاقة بين الوجود ومصدره . فقد قسمت هذه المشكلة الفلاسفة الى معسكرين: أنصار (العلو) أو الانفصال ، وأنصار (الحلول) أو الاندماج. وأنت تعارضهم بالكلمة المأثورة : « عنه تصدر الصفات لا بالصفات يوصف » . فالوجدان متصل

---

(١) رسالتا الفلسفة والأخلاق ص : ٢٨ — ٣٢ .

(٢) رسالتا الفلسفة والأخلاق ص ٣ .

(٣) المصدر ذاته ص ٤ ، ٥ .

بالرحمن لأنه منه وإليه ، وفي الوقت ذاته منفصل عنه لأنه حر مستقل . فاذا ماتمكن الانسان من ان يستجلي في الصورة معناهـــا ارتقى الى مصدر إنبثاقه فأصبح بوسعه ان يشترك مع العناية (ومنها المعنى) في حق تقرير المصير : مصير الانسان ، ومصير المجتمع الانساني ، وربما مصير الوجود . »(١)

أما المنهج الفني فقد عارضت به المنهج الأرسططالي أو العلمي الذي يقوم على تحويل الصورة الى مفهوم ، وربط المفاهيم بعضها الى بعض في محـــاكات استنتاجية هي قوام العلم . فالمنهج الارسططالي صالح لفهم عالم الظواهر . أمـا المنهج الفني فيقوم في نظرك على تجميع الصور في منظومة كما تتجمع الأنغـــام وتنسجم في السمفونية ، تستقطب المعنى وتتخطى العلم لترتفع مع الآيات الى الوجود بذاته . وهكذا دمجت العـــلم والفلسفة إالعلمية في نظرة تتسع لها وتفيض عنها (٢) .

ولكن الفلسفة لم تكن بالنتيجة في نظرك إلا وسيلة تهدف فيما تهدف الى تفجير الانسان من الداخل لتحوله من شخص (قناع) الى (ذات) . والذات أو البطل هو الذي ينتقل بالانسان « من عهد الناموس ، حيث تمارس الآراء عرفاً إلى عهد الروح القدس الذي تتجلى الآيات فيه علماً وعملاً » (٣) ، أو من الناسوت إلى اللاهوت ، كما تقول أيضاً : « ان النبي اذ يصلح المجتمع يخلق نفسه فتبدو له معالم حياته من الملأ الأعلى وحدانية حرة متعالية عن تلازم الحوادث وعن خضوع هذا التلازم للعلاقة المكانية »(٤). وهذا هو في رأيك معنى الحكمة المأثورة : والصورة

(١) المصدر ذاته صفحة ١٩٣ وما يليها .

(٢) رسالتا الفلسفة والأخلاق ص (٢٢ - ٣٦) .

(٣) رسالتا الفلسفة والأخلاق ص ، ٣٦ .

(٤) المصدر ذاته ، ص ٣٧ .

المرئية هي الغاية الكلية »[1] اذ عندئذ يتجلى المعنى بالذات صورة يراها الجميع وتنتقل اليهم بالعدوى فتصبح قدوة . ومن اقتدى بالبطل اهتدى ومن اهتدى تفتحت في نفسه ينابيع الحكمة مثلا أعلى متجسداً بشراً[2] .

وهكذا يتحول حب الحكمة الى حكمة وينقشع الحجاب المزعوم بين الطبيعة ومـــا فوق الطبيعة ، ويحصل التلاقي بين قطبي الوجود ، وتتحقق الميتافيزيقا[3] .

وترى فيما ترى أن الخطأ الذي ارتكبته اوروبا هو أنها اعتبرت ، مــع الأغريق ، الانسان والشؤون الانسانية على غرار الشؤون الطبيعية ، فأخضعته وأخضعتها للحتمية . وبذلك فقدت (المعنى) وهو نتاج عربي خالص حملناه الى العالم مع الرسالات السماوية . فاذا ما اهتدت اوروبا اليه مرة ثانية ، تحقق اللقاء بيننا وبينهم ، لقاء يكمل فيه أحدنا الآخر : المعنى والمفهوم ، ماوراء الطبيعة والطبيعة ، الرسالة والعلم ، وسارت البشرية في سبيل الخلاص[4] .

من اللغة الى الأمة

اكتشفتَ العروبة أول مرة في اللواء عندما لمت شتاتها المبعثر في تلك البقعة من الأرض ، وحدة كالبنيان المرصوص قذفت بها في وجه الاستعمار . « الأمة بداية حياة جديدة[5] » . بهذه الكلمة المعبرة وصفت تجربتك . وما زال

---

(١) المصدر ذاته ص ، ٦ .

(٢) المصدر ذاته ص ، ١٧ .

(٣) المصدر ذاته . ص ١ وما يليه ، والعبقرية العربية ص ١٨ .

(٤) العبقرية العربية ص ٧٨ .

(٥) صوت العروبة في لواء الاسكندرونة ص ١٠ .

هذا الكشف الأول البطولي حتى الدقيقة الأخيرة من حياتك ، المحرّك الباطني لسلوكك ولتأملاتك .

وتكتشفها مرة ثانية بنياناً رحمانياً عندما أخذت تفكك لغتها ، فتتراءى لك ، على غرارها منظومة حية ، وأنشودة تسبح بحمد الذي خلقها آية على صورته ومثاله . فتكتب عام ١٩٤٣ : « اختارت الأمة العربية بنيتها وفقاً لغايتها من الوجود »[1] . وتكتب عام ١٩٦١ بصدد تجربة اللواء وقد تكشفت لك عن مضمونها كاملا ، تكتب : « الأمة شجرة سحرية جذورها في الطبيعة وصبوتها في الملأ الأعلى . »[2] فالآريون أبناء الأرض ، أما العرب فأبناء السماء[3] . وعندئذ يتضح لك معنى الحكمة المأثورة : « الأسماء تنزل من السماء » .

الأمة بداية ــ الأمة تجربة رحمانية ــ الأمة آية ــ الأمة منظومة حية . . تلك عبارات مابرحت ترددها فتفهمها بأقوى معانيها . فالبداية هي مايُبدأ بــه اطلاقاً ، والاية هي الدال والمدلول بآن واحد .

فالفلسفة العربية هي شخصية الأمة العربية أو ذاتها بياناً متكامل الأجزاء . ولما كانت الامة واللغة أمراً واحداً ، فالكشف عن بنيان اللغة العربيـــة هو الكشف عن الفلسفة العربية ، او عن الحكمة ذاتها .

فاللسان العربي ، كما تقول ، بدائي وبديء : بديء أي أصيل انبثق من الطبيعة ليعبر عن الوجود في حقيقته الصميمية . وبدائي أي أول ما يُبدأ بــه .

---

(١) العبقرية العربية ص ٧١ .

(٢) صوت العروبة في لواء الاسكندرونة ص ١٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٦ .

فهو التعبير الصادق عن غريزة - بمعنى فطرة - الكلام القائمة في الانسان ، وبه ومعه يبدأ ابداع المرء لذاته كما ابدع خالق الوجود [١] .

والسان العربي أيضاً « اشتقاقي البنيان » ترجع كافة كلماته الى صور صوتية ، مرئية « مقتبسة مباشرة عن الطبيعة » : الطبيعة الخارجية والطبيعة الانسانية في التعبير عن مشاعرها [٢] .

والسان العربي أخيراً كالأمة العربية منظومة تتألف من أسر ، كل أسرة منها تتألف من كلمات ، وكل كلمة اسرة صغيرة تتركب من أصوات ثلاثية المقاطع ومن ثم ثنائيتها . ويتركز هذا البنيان حول المصادر ، كل منها حدس في نظام الوجود متكامل الحلقات ومتجاوب مع غيره[٣] .

ويجول خيالك الخصب في المعجم العربي ينتقي منه ما طاب له من مصادر (فق - خشّ - خرّ - فرّ - نبّ - فج - بقّ - أخّ - أنّ - الخ) يتلاعب بها كما يتلاعب العازف البارع بكمانه، فلا يدري القارىء ما اذا كنت فناناً يبدع الصور والأساطير أم فيلسوفاً يركز الكلم كما يطيب له ليعبر عن حدسه . (الأمة من الأم - الدنيا من دنا - المادة من الامتداد - النبي من نبّ أي ارتفع ، وهكذا) ولقد نسجت في هذا المضمار على غرار افلاطون دون ان تعرف ما كتب ، ولكنك خلصت الى نتائج هي عكس النتائج التي خلص اليها الفيلسوف الاغريقي [٤] . وتنتقل الى الأحرف لتسبر قدرتها التعبيرية . فحرف (الراء)

---

(١) العبقرية العربية ، ص ٢٩ .

(٢) المصدر ذاته ص ٢٩ .

(٣) المصدر ذاته ص ١٢٣ .

(٤) حوار الكراتيلوس . من محاورات أفلاطون في سن الشباب ، وفيه يحلل اللغة الاغريقية ليرى ما اذا كانت هناك لغة طبيعية أم لا . طبيعية بمعنى أنها سابقة على الاصطلاح ، فهي بالتالي أم اللغات لانها صورة صادقة عن الموجودات .

للعركة ، وحرف (الغين) للغيبوبة ، وحرف (الحاء) للتأوه ، لا يجاريك إلا أفلاطون في قدرتك على استنباط المعاني من الأصوات .

وتطبق المنهج ذاته على دراسة الشدة والمدة والتصغير والمثنى وحركات الاعراب والقواعد والفعل في مختلف صيغه ، الخ ، فترى أن الذين وضعوا في الماضي الصرف والنحو – وجلتهم من الأعاجم – أخطأوا في فهم اللسان العربي وطبيعته الرحمانية ، فسنوا له قواعد هي قواعد الاغريقية لا العربية . وربما أن الكشف الكبير الذي حققته للغة الأجداد ، بالاضافة الى ما تقدم هو أنك رأيتها في كل كلمة ، كما في كل عبارة ، فسحة نفسية يتجاوب فيها قطبا الوجود . فكلمة (ذكاء) المشتقة من (ذكى) تدل في صورتها الحسية على اشتداد اللهب . ولكنها تشير في مدلولهـا المعنوي الى النور المنبثق عن استجام النفس اذ تتوقد من الداخل فتبدع[1] . ولهذا رأى الأقدمون في الشمس صورة الإله ، وربما إلها ، فوجهوا أنظارهم الى السماء حيث تفيض الشمس بنورها فتغمر به الكون . والحقيقة العميقة لهـذا الرمز الحسي في النور المنبثق داخلياً ، وعلى شفقه تصطفي النفس الحالات المختارة وتحققها فيتضح لغز الوجود: كن فيكون[2] .

وفي كل الأحوال فالنفس تنمو بنمو هذه الفسحة عمقاً واتساعاً ، كما انها تتقلص بتقلصها .

ويبدو هنا التعارض كلياً بين اللغة العربية واللغات الغربية . فهـذه اصطلاحية ،على غرار المجتمعات الغربية ، تنمو بالاضافة؛ أما اللغة العربية فعضوية

---

(١) العبقرية العربية ص ٧٣ . اللسان العربي ص ٩١ وما يليها .

(٢) اللسان العربي ص ٩٣

تنمو من الداخل بالاشتقاق . الأولى مؤلفة من صوت ومعنى ، والثانيـــة من صوت وخيال ومعنى . الأولى لغة المفهوم والثانية لغـة المعنى . الأولى تتطور بتطور الرأي العام، فيصعب على الأحفاد فهم كلام الأجداد . أما الثانية فجذورها فوق التاريخ والطبيعة ، تضمن لها الخلود (١) .

وبكلمة مختصرة فاللغات الغربية نسبية أما العربية فمطلقة .

الغربي يتصرف بالكلمات كما يتصرف بالمعادلات الرياضية ، يستخدمها لانشاء العلم والصناعة والسيطرة على الطبيعة . تلك هي اصالته ، يدل عليها ،حدا أخيرا ، اخفاق هيوم في الفلسفة ونجاح نيوتن في العلم ، والنسبية عند الغربي هي التي ادت به الى المادية (٢) .

أما العربي ، فاما أن يرقى الى مستوى لغته ويرقى معها الى المعنى المطلق وعندئذ تنصاع له الارض والسماء ، وإما أن يقصر عنها فيخسر الاثنين معاً .

هذه الدراسة للغة هي التي تكشف عن حقيقة الأمة :

أهي جملة ذكريات وأماني كما يقول رينان ؟

أم شركة مساهمة كما يقول كليمنصو ؟

أم رابطة المصلحة كما يقول غيرهما ؟

أم محصلة لمجموع الظروف التاريخية والجغرافية والاقتصادية التي أنشأتها، كما يقول الغربيون جملة ؟(٣)

---

(١) العبقرية العربية ص ١٠٢ – ١٠٨ . وصوت العروبة ، المقدمة والمقالة الأولى ، اللسان العربي ص ١٠٢ .

(٢) اللسان العربي ص ٩٨ – ٩٩ .

(٣) العبقرية العربية ص ٢١٤ وما يليها .

هذه التعريفات تدل على حقيقة الامة في الغرب . اما الامة العربية فشأنها آخر : انها الهام ومعنى وعبقرية وآية .

فكيف هوت عن هذه القمة ، وما السبيل الى بعثها من جديد ؟

تلك كانت المسألة التي طرحتها على ذاتك ، محركاً داخلياً لتجربة اللواء، ومن ثم لابحاثك وتأملاتك . وهي مازال مطروحة علينا حتى الان ، ولقد اصبت إذ حاولت الاجابة عليها بالتأمل في كنه الحضارة الحديثة . فما هي هذه الحضارة في وجهيها : الايجابي والسلبي ؟.

من المدنية الى الثقافة فالبعث

بدأت الحضارة الحديثة ، فيما ترى ، باكتشاف الارض جرماً بين الاجرام السماوية .

هذا المطلع النسبي ، وهو من المدنية كنبرة الايقاع من النغم ، ينم عن حقيقة العلم الحديث والعقل الذي أنشأه ، كلاهما ينشد النظام فيجده في نسبية الحوادث وتلازمها ضمن القانون العلمي وضمن الطبيعة التي يعبر عنها هذا القانون ؛ كلاهما يرجع الظواهر الى منظومة رياضية ، أجزاؤها متلازمة متكاملة تلازم الخطوط والزوايا في الاشكال الهندسية ، وبهذا تنتظم الطبيعة ، كلا وأجزاء في الجاذبية الكونية[١] . وبهذا أيضاً يحصل التلاقي بين نظام الممكن (العقل) وبين نظام الواقع (الطبيعة) فتصبح الطبيعة شفافة للعقل المحلل الذي يبنيها بنياناً رياضياً محكم الحلقات ، شأنها في ذلك شأن الاحساسات التي تقوم على منظومة اهتزازية[٢].

---

(١) رسالتا المدنية والثقافة ، الجزء الاول الصفحات (٥) و (٥٠)

(٢) المصدر ذاته ص ٥٩

فالكائنات ، في منظار العقل الحديث، على مثال الالة تتكامل أجزاؤها، لا في وحدة عضوية ، بل في وحدة الوظيفة .[1]

ويقوم العقل الحديث على مبدأين : السببية والتطور ، الثاني ظل الاول . فمي السببية تستدعي كل حادثة حادثة أخرى علة لوجودها . والتطور يسلسل هذا التداعي الى مالانهاية له في انشاءات منطقية تتقدم تقدماً مطرداً . أما الصناعة فتحول القانون العلمي الى آلة تمكن الانسان من السيطرة على الطبيعة .[2]

وتلي هذه الثورة في العلوم والصناعة ثورة في المجتمع ، وثورة اخرى في الأخلاق : الأولى تزيح النظام الاقطاعي عن مسرح الوجود وتثبت حق الانسان في ترتيب شؤونه حسب مشيئته (الديمقراطية) كما تدفع الأمم المستعمرة الى انتزاع حقها في الاستقلال والسيادة (التحرر)[3] .

والثانية تزيح عن الطبيعة الهالة السحرية - الخرافية التي احاطتها بها القرون الوسطى ، وتقشع عن الوجدان أوهام التقاليد البالية التي ادخلت عليه المجانة . فليس ثمة قوى خفية توجه الحوادث او تستثيرها . وليس في الوجدان فعالية خفية تسيره من الداخل ، وانما هو سيد ذاته يدبر شؤونه حراً [4] .

تلك هي المدنية تساير الطبيعة ، ولكن مفاهيمها تبقى على مستوى الحوادث الكونية عاجزة عن النفاذ الى معناها وإلى حكمة وجودها .[5]

---

(١) المصدر ذاته ص ٤٤ وما يليها
(٢) المصدر ذاته ص ٥٨ - ٥٩
(٣) المصدر ذاته ص ٥٢
(٤) المصدر ذاته ص ٣٩ - ٤٠
(٥) المصدر ذاته ص ١٣

وتلي المدنية الثقافة مرتبة اعلى في الابداع الانساني. فالمدنية علم وصناعة.. أما الثقافة ففن وفلسفة، شعر وفكر، أدب وأخلاق.

وتتأرجح الثقافة بين الطبيعة مبعث رموزها (مصطلحاتها) وبين الملأ الأعلى مصدر الآيات، كما يتأرجح الذهن في فسحتها بين آفاق متفاوتة بالرفعة تأرجح الانسان بين العادة والابداع [1]. فالفن مثلاً صورة ومعنى، بالصورة يتصل بالطبيعة، وبالمعنى يرقى الى الآية.[2]

فاذا كان العلم يستلزم عقلا منطقياً، والصناعة مهارة يدوية او ذكاء عملياً، فالثقافة تستلزم ذوقاً أصيلا وخيالا غنياً يحول بها الانسان الرموز الى معاني يتصل بواسطتها رحمانياً مع الحقيقة.[3]

ولقد حللت الفن في رسالة صغيرة هي أجمل ما كتبت وأروع ما صدر عنك. ذلك أنك كنت كأجدادنا في الجاهلية، تعشق الجمال، يستهويك كما يستهوي النور الفراشة. أو كسقراط الذي كان يرصد الأجسام الجميلة يرقى على مصاعدها الى الروح الجميلة فالى الجمال بذاته[4]. في هذه الرسالة تنفذ الى أعماق التجربة الفنية فتتراءى لك في أبعاد ثلاثة:

البديع (من بدع ومنه الابداع) وهو حالة انبثاق الالهام في أعماق الحياة.

الحسن (من الحس) يدل على أن الالهـام يتحقق في صور حسية (أنغام، ألوان، كلمات).

---

(١) المصدر ذاته ص ١٤

(٢) رسالة الفن (في آخر رسالتنا المدنية والثقافة الثانية) ص ١٠١

(٣) رسالتنا المدنية والثقافة الجزء الاول ص ١٤

(٤) حوار المأدبة لأفلاطون.

الجمال (من جم وجمل) يدل على التأليف بين الصورة والمعنى، مثل الفنان في ذلك مثل الساحر في استدعاء المارد، في الحالتين بعد الانسان الفسحة الملائمة فيتجلى عالم الغيب، عند الاول وهماً، وعند الثاني آية. فاذا ما كان الانسجام بين الصورة والمعنى تاماً، حصلت التحفة الفنية لتبعث في النفس الفرح والروعة.(١)

والفن بذلك يحاكي الحياة وينسج على غرارها، فالاثر الفني يتكوّن أول مايتكوّن رسماً (كالرشيم) ثم يتكامل، بخلاف الكائن الحي، مستقلاً عن البدن. ومع ذلك فهو يبقى ضمن الحياة لانه تجسد للالهام يشبه تجسد بوادر الشعور في الميجان (٢). وهذا هو السر في تأثيره على البشر، فهو ينقل اليهم الايات عبر الصورة ويدفعهم الى الرقي على مصاعدها نحو مصدر انبثاقها.

ويبلغ الفن ذروته في الابداع الشعري (الشعر من شعّ وشعر) لان الشعر يشمل كل الفنون، فهو صوت ولون، ومن ثم بيان به تتضح معالم الاية وبه أيضاً يشرق المعنى اذ يتجسد صورة مرئية في عالم العيان.(٣)

وتتخطى الثقافة ذاتها في الفلسفة التي لم تكن في نظرك منفصلة عن الفن وعن الشعر، فهي تضيف اليها التعبير الدقيق عن المعنى فتحول في نهاية المطاف أو مع الذات القول الى عمل. وهنا يبدو التفاوت في المرتبة جلياً بين المدنية والثقافة، اذ بينما يبقى العلم والصناعة على السطح من الوجود، ترقى الفلسفة ويرقى الشعر الى قمته او الى أعماقه. وعندئذ تنجلي الحياة أمنية غايتها فيها منذ البداية، غاية

---

(١) رسالة الفن ص ٧٠ – ٧١

(٢) المصدر ذاته ص ٩٥ – ١٠٢

(٣) المصدر ذاته ص ١٠٤ – ١٠٩

أو أمنية تجذب اليها وسائل تحققها . وتقتضي الفلسفة بجمع شتاتها و تنسيقها ، ومن ثم ادراكها رحمانياً من خلال الخيال الذي تشخصت فيه ، وادراكاً تجيب عليه العناية بيدور الآية التي هي حكمة وجود الشؤون الانسانية»(١) .

فالمدنية والثقافة والرسالة مستويات ثلاثة كل منها يكمل الآخر ، وكل منها يعبر على طريقته الخاصة وضمن حدوده عن وجود، هو واحـــد في الصميم . فاذا ما انعدم أحدها شط الاثنان الآخران ، وزاغ الانسان ومجتمعه عن جادة الصواب . ويمكن القول أيضاً أن العلم والصناعة من جهة،والفن والشعروالفلسفة من جهة أخرى كلها وسائل لغاية واحدة هي استجلاء الآية لتقويم الواقع ؛والآية المتجلية هي ماتطلق عليه اسم (رسالة) .

ولكل من المدنية والثقافة مزلقه الخاص . فآفة المدنيـــة (والغرب الاغريقي بالتالي) المادية ،تعتبر المجتمع الانساني على غرار الكتلةالمادية، وتدرك الحوادث (الطبيعية منها والانسانيــة على حد سواء) من خلال المكان . أما الثقافة العربية فآفتها (الرجعية) تتنكر للعلم وللعقل وللتقدم فتحول الدين الى طقوس جوفاء ، والمعنى الى خرافة والحياة الروحية الى دروشة ، والحياة النامية الى خمول وتواكل .»(٢) .

وتلقي نظرة نافذة على وضعنا الراهن فترى اننا قصرنا عن اللحاق بركب المدنية ، فلا احتفظنا بحقيقة تراثنا ولا أخذنا بمقتضيات العـــلم والصناعة ، مثلنا كمثل أهل الكهف ، استيقظنا من ثباتنا فاذا بؤسسائنا وتقاليدنا قوالب فارغة أشبه شيء بقوقعة تصدعت وتداعت لدى اصطدامها المفاجىء بموجة المدنية

(١) المصدر ذاته ص ١١٩ .

(٢) رسالتنا المدنية والثقافة ص ٤

الحديثة فأصبحت قشوراً تحجب عنا حقيقتنا وتعيق ملاءمتنا مع البيئة المستجدة. فجيلنا الجديد ، وقد استحوذ عليه القلق ، يصبو الى المدنيـــة « صبوة الأصداف بين فترات الأمواج الى الشمس تجدد بها حيويتهـا » فهو ينفر من ماضيـه نفرة الطفل من البيئة التي تكوّن فيها [1] .

وتتقصّى أسباب التردي في التاريخ فتجد جذورها في المجانة ، وجذور المجانة في الشعوبية زيفت النفس العربية وشوهت نظرتها الصافية ، وعطلت فيها القدرة على الرؤية . وتكتب بهذا الصدد صفحات هي أجمل وأعمق ما كتبت ، فتقول : « اعتلت الشعوب على الفيض العربي اعتلاء الحشرات الضامرة على الموج فسكبت في الينبوع سمومها » . ذلك كان عهد الأغيار « غشوا فيه علينا كما يغشى البرغش الأزهار المتفتحة على طلعة الشمس فأصبحنا كحيوانات نسجت حولها الحشرات قوقعة من الافرازات جعلت من جسمها فريسة تتطفل عليها» [2] إذ ذاك طـمِست القيم العربية النبيلة (ابن المقفع) وفقد اللسان العربي قدرته على البيان (الفارابي وابن سينا) وحلت الخرافة محل الايمان (الغزالي) وتختار من هؤلاء المفكرين وغيرهم نصوصاً تدلل بها على ماتقول [3] .

مامن شك في أنك جرت بأحكامك على هؤلاء الاعلام وعلى غيرهم من أمثال ابن العربي وابن الطفيل وابن خلدون [4] . ولكنك في الوقت ذاته كشفت بجرأة الجرّاح البارع على النقطة التي بدأ فيها ، تاريخياً ، انحدار النتاج العربي من الأصالة الى المجانة ، من الابداع الى التقليد ، فحل التعقيد في البرهنة محل النظرة

---

(١) المصدر ذاته ص ١٨

(٢) المصدر ذاته ص ٦٢

(٣) اللسان العربي ص ٣٢ وما يليها

(٤) مقالات منشورة في مجلة (الشرطة والامن العام) .

الشفافة ، والكلام الملتوي محل البيان ، والتبس المعنى بالصورة ، والصورة بالمعنى، فاضعنا الاثنين معاً .

وكانت نظرتك أعمق وأصدق عندما ادنت العامية التي هي نتيجة أكيدة لاختلاط العرب بالشعوب ، ولقد لخصت رأيك بصورة هي أبلغ من كل كلام (العامية من العمى : انعدام القدرة على الرؤية) [1]

الدولة واستكمال التجربة الرحمانية [2]

وكنت تضع أملك في يقظة الشعب ، يستجيب من الأعماق لنداء الأمة، وقد تجسدت في بطلها، فيطرد الطفيلي ويقضي على الأغيار؟ سلاحه العقل ، غذاؤه الرسالة ، وأفق صبوته انسانية جديدة تضم في وحدة متكاملة خير ما انتجت حتى الآن : العلم والتجربة الرحمانية .

فهذه الانشودة التي نظمتها في حوارك الطويل مع لغة الأجداد فلسفة تعصم الغرب من شطط المادية والشرق من خطر الرجعة، هذه المنظومة الفلسفية، كان مرماها البعيد ، الى جانب انشاء الذات ، غاية أخرى تضاهي الأولى سموا وتتخطاها ، غاية تجلت لوجدانك خلال تجربة اللواء ، وما يوحث الهدف الاسمى لحياتك ، هدفاً كنت تضحي في سبيله بمتع الحياة الدنيا ، بالغالي والنفيس ، واذا اقتضى الأمر ، بالرفيق والصديق. وكانت مصدر قلقك وتأملاتك مصدر مالاقيت من صعاب جعلت منك شهيداً حياً ، وشاهداً لقول الحق ؛ هذه الغـــاية ، هي

---

(١) اللسان العربي .

(٢) رسالتنا الدولة والأمة، والأمة العربية: ماهيتها - رسالتها - مشاكلها . والجمهورية المثلى في فقرات كثيرة .

الدولة الموحدة لم شتات العرب من الخليج الى المحيط ، ومن فجر التاريخ الى يوم الدين .

فكانت خاتمة المطاف في بحوثك دراسة عن مقومات هذه الدولة ، وضعتها في كتاب (الجمهورية المثلى) وفي كتيب ظهر قبلها عن (الديمقراطية) . إن الأمة قائمة في نفوس أبنائها حقيقة لاتتبدل ولا تزول . ولكن الدولة هي التحقق الفعلي على صعيد المؤسسات الاجتماعية للأمة ، وهي الحامية لحقيقتها ولنظام قيمها ، وهي التي تكشف عن عبقريتها فتمكنها من تأدية رسالتها [1] .

فما الدولة ؟

إنها نزعة الحق إلى احقاق ذاته [2]،

وهي أيضاً التي تمكن المواطنين من اخضاع القدر (ظروف البيئة) لمشيئتهم .

وهي أخيراً شخصية المجتمع الواعية ، تأخذ بأيدي المواطنين لترتفع بهم الى مستوى الحرية ، في الاخاء والمساواة ، بحيث يتسنى لهم الاشتراك عن وعي في تقرير المصير العام [3] .

واذا كان المجتمع نظاماً يتألف من وظائف متلازمة ومتكاملة على غرار الكائنات الحية ، فالدولة هي الحدس المشترك الذي يكونه أعضاء المجتمع عن أمتهم . وهي ، من هذا القبيل ، ذات طبيعة مثالية ، جذورها ، كالأمة ، في الملأ الأعلى تتخطى الزمان والمكان ، وان كانت تجلياتها فيها [4] .

---

(١) الجمهورية المثلى ص ٧٠

(٢) المصدر ذاته ص ٩

(٣) المصدر ذاته ص ١١

(٤) المصدر ذاته ص ٤١ – ٤٣ – ٤٨

فالدولة هي أيضاً فسحة مثلى وعليا قوامها العدالة ، وفيها تتجلى الحقيقة: للبشر خيراً ، فتمكنهم من تقويم الواقع على ضوء المثل الأعلى [1] ، انها تجربة رحمانية .

ولكنك لم تنس أن الحياة المثلى — الروحية — لاتستقيم الا اذا استندت الى عقل تمرس بالعلم ، ولهذا وضعت البداهة العقلية التي تسوّي بين الناس على أساس الحكم الديمقراطي . فالعقل ، كما تقول ، مستقل عن كل سلطة غير سلطة البداهة التي تحصل من تجلي الحقيقة [2] . ووضعت الصناعة الى جانب العلم الذي لاينفصل عنها، فرأيت أن التجانس والانسجام بين المواطنين لايحصل الابنتيجتها[3] . وطالبت بالحريات كاملة لكل الناس ؛ فالديمقراطية في نظرك هي المناقشة الحرة حيث « يستجلي المواطنون العدالة ، على ضوء الحق من جهة ، ويظهرون عيوب الادارة في الشؤون العامة من الجهة الأخرى» [4] ، وطالبت لتحقيق هذا الهدف الأخير ، باصلاح زراعي يضمن لكل فلاح حقه بأرضه ، وباصلاح صناعي يشرك العمال في ادارة المعامل فيعصمهم من طغيان البورجوازية [5] .

كان هيجل قد رأى قبلك في الدولة تجلياً للحقيقة وتعبيراً أمثل عنها . ولكن دولته انشاء منطقي استجلى فيه حدس الغرب في المؤسسات الاجتماعية . أما دولتك فحقيقتها من أفق آخر ، إذ أنها ، وقد أصبحت نقطة ارتكاز التجربة

(١) المصدر ذاته ص ٤٨ — ٤٩

(٢) متى يكون الحكم ديمقراطيا ص ٣٢

(٣) المصدر ذاته ص ٣٣

(٤) المصدر ذاته ص ٧٤

(٥) مشاكلنا القومية صفحة ١٠٩ ، ومقالات متفرقة .

الرحمانية ، المثالية،فهي كالأمة آية أفصحت عن كلية المعنى فاتحدت بالخير[1] .

ولهذا كانت الحرية نقطة انطلاق بنيان الدولة وخاتمة المطاف في هذا البنيان . فبالحرية كما تقول ، يبدو الانسان و كأنه يكمل ما بدأت به العناية ، إذ يصبح القدر (نظام الحوادث) طوع مشيئته . فتكتب بهذا الصدد ما يلي : « مثـــل الدولة في تطورها من مرحلة العرف العفوي الى مرحلة الشريعة المتبلورةفي مؤسسات واعية كمثل الانسان في انتقاله من السليقة الى الارادة المستنيرة . »[2]

ولقد رأيت ، كما رأى أفلاطون قبلك ، أن الانسان الجديد بانشاء مثل هذه الدولة هو ذلك الذي صفت نفسه فأصبح بوسعها استقطاب آية الخيروالتعبير عنها رسالة يسير على هديها الناس . ولكن الحاكم الأفلاطوني فيلسوف سياسي ، اما حاكمـــك فنبي بطل (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ـ قرآن كريم) . وبهذا أضفت الى رجل الدولة بعداً لم ينتبه اليه الفيلسوف الأغريقي الا وهو البعد الروحي .

تقليد وتجديد

من السهل على الباحث المدقق أن يتبين في هذه الفلسفة عناصرها التاريخية .

فأنت واحد من فلاسفة الحدس الذين يؤلفون في تاريخ الفكر تياراً كبيراً يمتد من أفلاطون الى برغسون ، ويعارضه تيار آخر لا يقل عنه اهمية ، هو تيار فلاسفة (الحكم) الذي يمتد من أرسطو الى هوسول (وان كان هذا

(١) الجمهورية المثلى ص ، ٥١

(٢) المصدر ذاته ص ، ١٤٨

الأخير قد حاول الجمع بين الاثنين) . وأنت أيضاً نقطة تقاطع لثلاث مدارس كبيرة هي :

١ - المدرسة الأفلاطونية في امتدادها الأفلوطيني . وأفلاطون هو الذي وضع لفلسفة الحدس أطرها ومفاهيمها .

٢ - الصوفية الفلسفية التي بدأها أفلوطين ، وأكملت مفاهيمها الصوفية الفلسفية الألمانية في القرن الرابع عشر (ايكارت ، بهمه ، سوزي ، الخ) . يقابلها عندنا محيي الدين بن العربي وسابقوه وخلفاؤه .

٣ - المثالية الألمانية الرومنتيكية في أوائل القرن التاسع عشر (فيشته ، شلنج) .

ولقد حاولت كما حاول بعض الذين تقدمتهم واعتبرتهم دخلاء على تراثنا ، استعادة التراث العربي انطلاقاً من الفلسفة الأغريقية . ولكنك ، بخلاف هؤلاء ، أغنيت المنهج الارسطاطالي التحليلي ، بالمنهج الفني . وكان أفلاطون يلجأ اليه كلما شعر بعجز الديالكتيك عن اداء فكرته . فأنشأت مثله ، من الأساطير ما وسع خيالك الى ذلك سبيلا . وقد يكون فهمك للسان العربي ، على ما فيه من صحة ، من الأساطير الكبيرة التي تجدد الفلسفة والفكر من الداخل ، قبل أن يتناولها التحليل العلمي الدقيق ، فهذه الأساطير هي نقطة انطلاق الفكر العلمي ذاته ، وما قبل تاريخه .

ولكن هذا الأرث التاريخي لايقلل من شأنك في تاريخ الفكر العربي . فكل فيلسوف يستعيد تاريخاً ، وينتظم في تراث . وانما يميز الفيلسوف المجدد عن غيره هو قدرته على استجلاء ما كان مضمراً عند سابقيه وفي الوجود ، أو ما بقي حدساً فلم يستجله الفكر .

ويبدو لي أنك استندت الى الفكر العربي الأول (القرآن الكريم) من جهة ، ومن جهة أخرى الى المثالية الألمانية والى برغسون والى معرفة للعلم في شكله الكلاسيكي (نيوتن) لتجدد أفلوطينية ورثتها عن بيئتك وتعلمتها ، على ما أقدر ، من أحد أساتذتك في السوربون هو اميل برهيه . وقـد كنت تولي أفلاطون وأفلوطين من العناية قدراً تضن به على بقية الفلاسفة ، إذ مما لاشك فيه أن نظرية (المثل) الأفلاطونية كانت احدى البذور الأساسية التي تفتحت في ذهنك ، فأصبح المثال عندك تارة (آية) وتارة (اسما) وتارة (معنى) . وبذلك أدخلت تعديلا جوهرياً على الأفلاطونية . فالمثال كلي ، أما الآية ففردية وكلية بالوقت ذاتها لأنها تشير الى ما هو فريد في نوعه كما تشير الى وجود قائم بذاته . والمعنى هو (المثال) واكثر ، اذ انه يدل على الوجود ويعبر عنه ، فيفتح أفق اللامتناهي أمام مرمى النظر ، ويمكن العقل والحدس من محاولة استجلاء كنهه .

أما (الاسم) فهو في التراث العربي الأصيل والأول ما يقابل (المثال الافلاطوني (والجوهر) الارسططالي ، لأنه يدل على واقع فردي معين (هذا الانسان او ذاك وقد قصد لذاته) ويعبر عن قوامه او ماهيته . فهو في نهاية المطاف الفارق الأساسي الذي به تتحدد سمات العقلية السامية – العربية، وتتميز عن العقل الاغريقي – الغربي .

ولكن ما ان استعرض في ذهني هذه الآفاق الواسعة التي شققت ، حتى تتوالى علي الأسئلة ، فلا أجد لها جوابا وافياً شافياً عندك :

فما الفرق بين الآية والمعنى والاسم ، وأين موقع كل منها من الآخر ؟

ثم أيمكن التوفيق بين نظرية الاسم في شكلها السامي الأصيل وبين نظرية الانبثاق ذات الأصل الافلوطيني ، حتى ولو أضفنا الى هذه الفسحة الرحمانية تبريراً للأنا الذاتية ؟ فالاسم يعين فرديات مستقلة في الوجود ، وعند الانسان ذاتا حرة ، وكلها خلقت من العدم (كن فيكون) . أما الانبثاق فيفترض الوجود المسبق للمعنى والصورة ، وهو بالتالي عود الى الفلسفة الأغريقية والى فرضيتها في أبدية الكون ، عود يطمس لحد بعيد الأنا والحرية الذاتية ، مع أن الأنا والحرية الذاتية (على صورته ومثاله) من النقاط التي يتميز فيها الفكر السامي - العربي عن الفكر الأغريقي .

وأخيرا لا آخرا ، كيف يمكن التوفيق بين الاله الخالق من العدم الذي تتحدث عنه الكتب السماوية — وأنت ماتفك تردد آياتها الكريمة — وبين الاله معنى كما تقول أحيانا ؟ أو ليس الاله — معنى هو مثال الخير الأفلاطوني ؟ فلولا نظرية الذات وتجربة البطولة لقلتُ بدون تردد ان فكرك في هذا المجال أفلاطوني وافلوطيني أكثر مما هو سامي أوعربي .

يبدو لي شخصيا أن الافلوطينية سيطرت على تفكيرك عند تكونه ، وما لبثت بعض عناصرها الأساسية عالقة فيه حتى النهاية . وهذه العناصر هي التي جعلت من قراءتك للفكر العربي قراءة خاصة ، أقرب الى الترجمة والاستعادة منها الى البعث .

لقد رفضت ضمناً وصراحة نظرية الفيض الأفلوطينية التي أخذت بها الفلسفة العربية الكلاسيكية من الكندي الى ابن رشد ، واستعضت عنها بنظرية الانبثاق

وبالتجربة الرحمانية ، فمكنك هذا البديل من تحريك الأفلوطينية بعد جمودها ، ومن بعث الفلسفة الصوفية بعد موتها . ولكنك وقفت في أول الطريق ، وضعت الانبثاق – وربما التجربة الرحمانية أيضاً – فوق الزمان والمكان ، وبذلك فصلت بينها وبين الواقع المباشر ، واقع التغيُّر والصيرورة ، فأصبح لفكرك مستويان ، المعقول والمحسوس يعثر التلاقي بينهما ، وبقيت فلسفتك تتأرجح بين عالمين : عالم النظر حيث (فقه المعنى) كما تقول ، وعالم الممارسة حيث يجب تنظيم المجتمع على أسس علمية تنهض به . أو يكفي القول ، بعد كنت أن المكان والزمان شكلان أو صورتان تنتظم فيها الظواهر (أو الصور على حد تعبيرك) حتى تُحل مشكلة الزمان ، وأنت تقول ، على خلاف كنت ، بوجود تجربة مثالية روحية تتصل بالمطلق (الآية أو المعنى) ؟ ان مثل هذه التجربة تستلزم اضافة بعد روحي – مثالي للزمان يجعل منه طريقاً للمطلق ، هو بعد فاتك مع أن القديس اوغسطين كان قد نبّه اليه قبلك بكثير . ولهذا فان التجربة الروحيـــة عندك (التجربة الرحمانية) توحي أكثر مما تقنع .

والواقع أنك أعرضت عن المنهج التحليلي ، أو لم تستخدمه إلا لماما ، وكأنه ثأر لنفسه منك فأبقى فكرك عند حدود الايحاء الفني ، يعوزه الربط الدقيق بين المفاهيم ، والتعريف البين الشفاف عن المشكلات الفلسفية ، هــذا التعبير الذي يستطيع وحـــده أن يتحدث الى العقل فيقنعه . وخير دليل على ما أقول هو أنك ، عند رجوعك الى التراث العربي ، لم تستعده ، بل أعدته ، أي أنك اقتصرت على ترداد الآيات الكريمة ، وعلى ذكر أبيات من الشعر الجاهلي دون ما تحليل عقلي مفحم ودون ما تفسير . فكأنك تنطلق من مصادرة لا برهان

عليها هو أن التراث العربي تعبير عن فكرتك ، يختلف في ألفاظه عنها وينطبق معها في معناه . وهذا أمر لا يقوم عليه أي برهان .

أو يكفي القول أن العبقري كالساحر يعد المناخ الملائم (الصور) فتهبط الآية من الملأ الأعلى ؟ هذه أسطورة جميلة فنياً ، ولكن الأسطورة لا تتوب مناب التحليل المنطقي إلا في الحالات القصوى ، كما رأى أفلاطون .

وما ذكرته بشأن الزمان الروحي وعلاقته بالمحسوس والمتغير يصح بشأن الحرية والذات وغيرهما من المسائل الفلسفية .

يبدو لي أنك استكنت للمثالية المطلقة لتعلق هذه المشكلات . ولكن تحويل العالم الخارجي (العالم المحسوس والمادي) الى صور (ظواهر في لغة الفلسفة الحديثة) لا يستقيم إلا اذا كان منطلقاً لانشاء المشكلات التي تثير ولشق الطريق الذي يؤدي الى حلها . ولقد أقمتَ في هذا المجال تعارضاً اجمالياً تعوزه الدقة ، بين المثالية والمادية فلم تبين طبيعة هذا التعارض ولا حدوده ، مع أنه ، فلسفياً ، تعارض منتج اذا ما أخذ شكلاً ديالكتيكياً ، كما لم تلاحظ أن تاريخ الفكر قد تجاوز مع الفينومينولوجيا (وأحياناً مع تفرعاتها الوجودية) هذا التعارض ، فطرح المشكلات الكلاسيكية (الزمان والمكان — الأنا وعلاقتها بالموضوع — الخ) طرحاً جديداً لا يستطيع المفكر اهماله اذا كان يبغي الرجوع الى شيلنج أو الى بركلي ، أو الى غيرهما من دعاة المثالية .

ومن ثم لا أدري شخصياً كيف يمكن التوفيق بين مثاليتك المتطرفة والفكر العربي في اصالته الأولى ، تلك الأصالة التي طالما تغنيت بها . فالتمييز بين الفكر والمادة ، بين الروح والبدن ، تمييز فيثاغوري — أفلاطوني أخذه عن

الفلسفة الأغريقية ديكارت وفرضه على الفلسفة الحديثة في القرون الثلاثة (١٧ - ١٨ - ١٩) فانقسمت إثره هذه الفلسفة الى تيارين كبيرين هما المثالية والمادية ، ثم تخطى الفكر الحديث بتأثير الفلسفة والعلم هـــذا التمييز القاطع ، مع الفينومينولوجيا ، كما قلنا ، ومع غيرها . أما الفكر السامي - العربي فيرى في الحوادث كلا لا انفصام فيه بين الواقعة والمعنى . ولهذا فالحادثة في نظره آية تدل على الوجود دون أن تعينه في طبيعته الفكرية وفي نظامه الداخلي . كما أنه يرى في الانسان كلا موحدا ، روحاً وبدناً ، لايمكن الفصل بينهما (واليه تعودون) والله تعالى وحده هو الذي يستطيع التمييز بينهما . فلا يمكن اذاً أن يقال عن فكرنا الأول لا انه مثالي ولا انه مادي ، كما أننا لا نستطيع ادخاله ولا في واحد من الأطر التي تستخدمها الفلسفة الغربية لتصنيف مذاهبها . واذا قلنا عنه معك أنه مثالي ، فيجب علينا أن نأخذ كلمة (المثالية) بمعناها الأخلاقي والتقويمي ، لا بالمعنى (الوجودي) أو (الأنطولوجي) كما تريد .

بوسعنا أن نغني الفكر العربي بالمثالية وبالمادية وبغيرهما من الفلسفات ، ولكن شريطة أن تصهر هذه التصنيفات والفلسفات في فكرنا لا أن يصهر فكرنا فيها فتجره الى حيث لانريد ، وتفقدنا هويتنا .

وأخيراً فلقد اقتصرت في مناقشتك للفلسفة الحديثة على المادية . ولكن أية مادية هي تلك التي تنتقد ؟ انها مادية ستالين لخص فيها ماركس ولينين فقلصها واخرجها عن حقيقتها الأساسية . وكثيراً ما تناقش المادية السكونية التي قال بها القرن الثامن عشر والتي مضت وانقضت ، كما أنك تناقش المادية التي قام عليها علم النفس في أواسط القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مع أن هذا العلم تجاوزها بخطوات ، كما أن الفلسفة تجاوزت التعارض الكلاسيكي بين المثاليـــة

والمادية ، على ما ذكرنا . فالعلم الحديث ، علم الوقائع الطبيعية وعلم الحوادث الانسانية ، ينشيء مفاهيمه ونظرياته في فسحة عقلية تختلف جذرياً عن الفسحة التي نشأ فيها علم الماضي القريب والبعيد .

ولقد كشفت الفيزياء الحديثة عن أبعاد في المادة لم تكن بحسبان الماديين الذين سبقوه من أمثال انجلز ولينين . كما أن الفينومينولوجيا أعادت طرح مسألة وجود العالم الخارجي على أسس جديدة ، إذ بينت أن الذات الانسانية بعد أساسي من أبعاد العلم أياً كان ، فلسفة أم فيزياء أو غيرهما .

والمادية بعد ليست بالدرجة الأولى جوهرية المادة أو اوليتها الانطولوجية كما ظن مفكرو القرن الفائت ، وليست أيضاً الايمان بالمادة كما يتراءى لبعضهم ، وإنما هي — وقبل أن تكون مادية ديالكتيكية ، أو ميتافيزيقا مادية تستند الى الديالكتيك — هي البراكسس ، والثقة بالانسان كائناً عاملاً كما رأى ماركس ، وهي أيضاً الكشف عن الضياع ومحاولة الانتصار عليه . وفي نظرية الضياع بعد روحي يتخطى نظرية الخطيئة كحياد عن الخط التي هي بالأصل نظرية افلاطونية . من هذه المفاهيم ومن غيرها مما يشبهها ، تستمد المادية الماركسية قوتها وحيويتها ، وهذه المفاهيم هي التي ترسم لها حدودها ، حدوداً اذا ما تخطتها ضلّت في متاهات التفكير المجرد المعزول عن الواقع .

ان فلسفتك على النقيض من كل مادية ، هذا صحيح . ولكن كان يجب عليك أن تقف موقفاً منصفاً ، على الأقل من الديالكتيك فتفهمه في حقيقته العميقة كي تعين موقعك منه . فلقد رفضت السلب محركاً للتاريخ ، كما رأى هيجل وماركس ، قبل أن تحلله تحليلا عقلياً ، كما أنك رفضت ديالكتيك الحاجات المادية الذي قال به ماركس ، مع انك اخذت ببعض نتائجه عندما طالبت

بالاصلاح الزراعي وبغيره من معطيات الاشتراكية ، اساساً لنهضة العرب في القرن العشرين .

هذه المشكلات وغيرها ، كم من مرة أثرناها ، اعترض فترد ، وأسأل فتجيب بآراء سديدة ونظرات محكمة تفتح أمام العقل آفاقاً جديدة . ولكن كل ما كنت تقول كان بحاجة الى مزيد من التحليل لانشاء مفاهيم تضع كل مشكلة في اطارها العقلي وفي مكانها الطبيعي . ولكم أود الآن أن أستعيد كل ماقلت فأثبته . ولكني أخشى أن أضيف شيئاً لم تقله فأدخل على منظومة لم تكمل تعديلاً يغضبك في مثواك الأخير . ففلسفة فيلسوف لاينوب انسان آخر عنه في وضعها . ومع ذلك سأواصل الآن وغداً وبعده حواراً بدأته معك منذ زمن طويل . وستبقى آثارك نوراً يضيء الطريق أمامي وأمام غيري من الباحثين في شؤون الفكر العربي وفي مستقبله .

ثمة مسألة أخيرة أحب أن أثيرها الآن في نهاية هذا البحث لأهميتها ، ألا وهي مسألة الفلسفة العربية التي كرست لها كل جهودك منذ الأربعينات بعد أن انتهت المرحلة الأولى من مأساة الهواء .

أن تنطق العربية بلغة أفلاطون وأرسطو كما نطقت بلغة الوحي ، تلك مسألة بمنتهى الخطورة ، الآن كما في الماضي، لأن الحضارة الحديثة ، بما هي حديثة، حضارة الفلسفة،أكملها العلم الذي انبثق عنها . ولقد بدأ أجدادنا من الكندي الى ابن رشد ومن الأشعري الى ابن تيمية هذا العمل الجبار . ولكنهم وقفوا في منتصف الطريق لأنهم ، على ما أرى شخصياً ، لم يميزوا بين المستويات الثلاثة التي يقوم عليها الفكر الانساني ، وأقصد بها مستوى العلم ومستوى

الفلسفة ومستوى الوحي . فاذا كنا نريد حقاً ، وبإرادة عاقلة أن نرقى الى مستوى عصرنا ، علينا أن نكمل الطريق التي شرعوا في شقها .

اما أن تكون هناك فلسفة عربية بالمعنى الكامل للكلمة ، فتلك مفارقة غريبة . لأن الفلسفة ، كالعلم ، كلية تعريفاً ، لاتنتسب الى أمة ولا الى مرحلة تاريخية معينة . ذلك أن الفلسفة ليست وجهة نظر في الوجود ، كما ظن خطأ بعضهم في أعقاب هيجل . ولقد تخطت الفلسفة هذه البدعة منذ زمن ، وعادت الى ما كانت عليه يوم وضع أرسطو دستورها ، علماً للمبادىء الأولى ، وعلماً بالعلل القصوى ، تلك التي تشتق منها بقية المعقولات .

أما الإدعاء بأن كل لغة هي وجهة نظر في الوجود ، أو عالم انساني كامل مغلق على ذاته ، فرأي رآه المفكر الألماني همبولت وآخرون ممن حذوا حذوه في أواخر القرن التاسع عشر ، وذهب هذا الرأي بذهابهم .

صحيح أن كل فلسفة وليدة ظرف تاريخي معين تستجيب لندائه وتتفاعل معه فتطوره ويطورها . ولكن الفلسفة الكبيرة ، لاتستمد قيمتها من صياغة مشكلات زمانها صياغة عقلية فحسب ، بل من قدرتها على تخطي اطاري الزمان والمكان لتفتح أمام الممارسة النظرية والعملية آفاقاً جديدة . الفلسفة الكبيرة أيضاً تستقطب الزمان الآتي فتجعل منه حاضراً . الفلسفة الكبيرة ، أخيراً ، برهانها الذي هو الحقيقة ، لا وجهة نظر صاحبها وبيئتها التي قد تكون ذاتية وبالتالي محدودة .

صحيح من جهة أخرى ان كل فلسفة ، وللسبب السابق ، توضع في لغة معينة هي التي تحدد لها مفاهيمها وقدرتها على صياغة المشكلات . وفكرنا المعاصر يعاني مايعاني فلسفياً لتقصير لغتنا الراهنة وفقرنا في الابانة عن مشكلاتنا ومشكلات العالم والانسان . ولكن الحقيقة التي هي هدف كل تفكير تتخطى

كل الأطر التي تتجسد فيها ؛ فاللغة منها بمثابة البدن من الروح اذا كان هذا التعبير دقيقاً . واني لأتساءل ما اذا كانت الفلسفة في اللغة أم اللغة في الفلسفة ان صح التعبير .

ولقد حاولت ، كما حاول غيرك من الفلاسفة ، أن تكون على مستوى الانسان بما هو انسان ، لا على مستوى الانسان العربي ، ومن مقياس الحقيقة بما هي حقيقة ، لا بمقياس الحقيقة العربية ؛ كما حاولتَ أن تستجلي كنه الوجود بما هو وجود (نظرية المعنى والصورة ، التجربة الرحمانية ، الخ) لا كنه الوجود العربي بوصفه عربياً . ولكنك – ولهذا – تجاوزت كل الحدود وكل المفارقات عندما جعلت من العروبة ملء الزمان وملء الوجود، جعلت منها آية قائمة في العقل الالهي من الأزل الى الأبد . أو لا يحق للمرء أن يتساءل كيف حصل هذا التلاقي العجيب بين اللسان العربي ، لسان الفطرة ، وفلسفات أتت بعده بقرون وقرون كالمثالية المطلقة وغيرها .

ما من شك في أن اللسان العربي عضوي البنيان ، اشتقاقي التأليف ، ينمو من الداخل . وهذه الميزات (التي أصبحت مرحلياً عقبات) تجعل منه أداة ممتازة للفن وللفلسفة ، أي فن كان ، وأية فلسفة كانت . ولكنها لاتجعل منه بالضرورة وبالفطرة تعبيراً كاملاً ومتماسكاً ودقيقاً عن فلسفات قضى العقل الانساني قروناً حتى صاغها وجعل منها ماهي عليه الآن . وما من شك عندي في أنك كثيراً ما كنت تصطنع معاني للأحرف والمقاطع (الثلاثية منها والثنائية) وللمفردات حتى تعبر عما تريد أنت أن تعبر هي عنه .

ومع ذلك فكل ماتقدم من اعتراضات لا يقلل من شأنك في الفكر العربي . فكل فلسفة ، مهما اتسعت وعمقت ، عرضة للنقد ، حتى وللتجريح . ويكفيك فخراً أنك أول من حاول ، بعد قرون من الانحطاط والتردي ، انشاء الفلسفة في لغتنا ، وفي لغة كانت بالأصل معدة للتعبير عما هو أسمى من الفلسفة وأعلى شأناً . وكنت وما تزال الوحيد في هذا المضمار على ما أعلم . يكفيك فخراً أنك أعرضت بازدراء عن كل محاولات المتفلسفين والمتسكعين أمام الفكر الغربي ، فرفضت بأنفه الهجين والدخيل من المفردات والتعابير ، وأنشأت للفلسفة مفردات ومقولات ومفاهيم مستمدة مباشرة من لغة أجدادنا .

منظومة لم تكمل

وماعساي أقول أيضاً؟ . هذا الحوار الذي بدأ منذ سنوات لن ينتهي في ساعات ، ولسوف أواصله وحدي في صمت القلب ، جهد المستطاع ، اصغي الى الحوادث كما كنتَ تصغي ، وأستجلي أقوالك ، ماسجل منها وما لم يسجل .

ويؤلمني اني لا أعرف شخصيا (والعروبة على ما هي عليه) من ذا الذي تعنيه شؤون وشجون ، كانت بعد تجربة اللواء أعز عليك من مقلتيك ، وأغلى على قلبك من حياتك ، وكانت عندى فرحة إذ أسمعك تسترسل في الحديث عنها ، وأنا أطوف معك شوارع حلب ودمشق على غير هدى ، نبدأ الحديث العشية في الربيع ، ربيعاً تتفتح له نفسانا ، ونستأنفه مع الضحى تأملات تنير ظلمات قلبينا في عالم سدت فيه منافذ الأمل ؟

ويؤلمني أيضا أكثر من هذا أنك لم تضع (فقه المعنى) ذلك المؤلف

الذي مابرحت تعد العدة له منذ أن وضعت (العبقرية العربية في لسانها) وحتى الدقيقة الأخيرة من حياتك . فكلمة (فقه) في نظرك تقابل كلمة (فلسفة) الأغريقية . وفقه المعنى سيكون ، لو وضع ، تأليفا للوجود بوصفه معنى شاملا كليا تترتب فيه المفاهيم والصور ومجموع المشكلات الفلسفية (الطبيعية منها وما فوق الطبيعية) بحيث تؤلف منظومة تقول منظومة الوجود الرحماني وتعادله . فهو الوجود وقد أصبح قولا مبينا ، أو التجربة الرحمانية وقد أصبحت بمقياس الوجود . كان هذا الكتاب بمثابة جواب على الأسئلة التي طرحتها عليك في هذا الحديث ، وعلى غيرها مما كنا نطرحه معا ، فتره بأجوبة تشق الطريق دون أن تصل الى نهايته .

لِمَ لَمْ تضع هذا الكتاب الأساسي والشامل ؟

ألأن الشيخوخة أدركتك في سن مبكر ؟

أم لأن مشكلات الساعة ألهتك بأهميتها الملحة عن سواها ؟

لقد وضعت في السنوات الأخيرة من حياتك مقالات بالعشرات لتنير الرأي العام وتربي فيــه الحس الديمقراطي اذ تبين له حقيقة النظام الاشتراكي وحقيقة الاصلاح الاجتماعي ، كما تبين له الخال في سياسة السياسيين . وكان الناس يتوافدون عليك بالعشرات ، منهم المرائي الكذاب ومنهم الصديق المخلص ، ومنهم ماهو بين بين ؛ ومع أن أحدا منهم لم يفهم حقيقة ما كنت تريد ، فقد كانوا يغدقون عليك المدائح ، وانت ، في سذاجة الطفل البريء ، تعتقد أن الرأي العام سيهب في القريب العاجل لنصرتك ؛ ومع أن القوم — أصدقاء وخصوما — كانوا وما يزالون لاهين عنك ، عن مقالاتك الاصلاحية وعن مقالاتك الفلسفية ، الهتهم أنانيتهم الشخصية

عن كل ما عداها ، يقولون بألسنتهم مالا يعتقدون بقلوبهم . وفي كل الأحوال فهم في واد وأنت في واد .

تلك أسباب ، على أنها صحيحة ، لاتقنعني .

أفلأن في الوضع العربي الراهن مايجعله عاجزا عن ازاحة ثقل الماضي لينطلق حرا في آفاق الثقافة الغربية وفي آفاقه الخاصة يستشف عبرهما مستقبله ومستقبل الانسانية .

نعم ! ان الوقت لم يحن بعد لربط الماضي بالحاضر . فالأمة ، في صميم واقعها الراهن ، وبالرغم من كل التأكيدات الوثوقية تعبر بها صبحا مساء عن ارادتها في الوحدة والحرية والاشتراكية ، هذه الأمة في حيرة مفجعة ، تعتقد أن مصيرها بيد القدر الخارجي لابيدها . فمن ذا الذي يستطيع الآن ، وفكرنا على ماهو عليه من تخلف ، ان يضم في منظومة واحدة التصنيع والاصلاح الزراعي مع تجربة روحية (هي كل وجودها الأول والأصيل) إمحت من الذاكرة أو كادت فأصبحت نسيا منسيا .

ان اللسان الجميل الذي تغنيت به صعب المراس ، تعوزه أجيال من العمل الفكري الدائب حتى يتمكن من مواصلة مسيرته فيتسع لمشكلات نشأت بمعزل عنه ؛ لقد ابتلي الناطقون به بالوهن فانطوى هو على نفسه وأصبح ضنينا بأسراره .هذا السؤال طرحته عليك مرارا فكنت تبدي تفاؤلا لم يقنعني، وأظن أنه لم يقنعك أنت . وسيبقى معلقاً – معلقاً في الفراغ – حتى تستجيب النفوس لنداء الأعماق فتطرحه طرحاً صحيحا يمهد السبيل للجواب ، ولما سيلي الجواب من أجوبة ومشكلات لاتنتهي . واذا كانت الأمة لسانها ، فهي لساننا

عظمتنا وبؤسنا . وشعورنا بجبروت تراثنا يزيد من شعورنا بهوة التردي التي انزلقنا في مهاويها وما نزال دون أن ندري .

ويؤلمني أكثر من هذا وذاك كما كان يؤلمك عندما كنت تقول لي (أنا لست من هذا الجيل inactuel ، كالمسيح على حد تعبيرك بالضبط) يؤلمني أن المنظومة التي بدأت بتأليفها ولم تكمل ، سقطت وتسقط أكثر فأكثر في الفراغ المطلق ، لحناً لا يسمعه أحد. فمن ذا الذي يعنيه اليوم وغداً وبعده أمر التجربة الرحمانية ، وشأن علاقة المعنى بالصورة ، وغيرهما من الموضوعات التي مابرحت تردد وتردد ، كالأستاذ يكرر الدرس حتى الاملال لاعتقاده ، رغم تفاؤله ، ان طلابه لم يفهموه .

ان البطل الذي أردته ، أو بالأحرى الذي أردت أن تكونه ، سيمر زمن طويل قبل أن يظهر . وسيكون هذا الزمن الآتي زمن مخاض طويل ، يحمل كل آلام المخاض .

واني لأتساءل مرة أخرى : لمَ وقعت تعاليمك في الفراغ ؟ الأنك لم تتمكن فعلا من ربط الماضي بالحاضر ؟ ربمـــا . فلقد نظرت الى الأول نظرة خاصة أوحت بها اليك بيئتك ودراساتك الفلسفية . ثم ظننت أن البطولة والاصلاح الزراعي كافيين لانشاء قاعدة مادية تقوم عليها التجربة الرحمانية .

أم لأنك طلبت من القوم ما لا يستطيعون القيام به فلعنتهم ورميت بهم (في الظلمات البرانية) فأعرضوا عنك ؟

كل هذه الأسباب والمبررات صحيحة ، ولقد كنتَ تراها أحسن مما أرى ، وتعرفها أكثر مما أعرف . لأنك ، بالرغم من غربتك ، كنتَ أنت أيضاً من

أبناء هذا الجيل ، في نفسك مخاوفه ووساوسه وعقده ، دفعت بها أحيانا الى حدود لانطاق . فأنت وليد ظرف نشأ من صدمة ، هي صدمة المدنية التقنية تسحق بلا رحمة من لا يأخذ بكل حقائقها ومستلزماتها . ولهذا احتفظت حتى الدقيقة الأخيرة من حياتك بهدوئك وتفاؤلك وثقتك بالأمة ، لأنك كنت تعرف أن الذي يربح المعركة هو ذاك الذي يصمد للعدو حوله وفي داخله .

ولهذا علّمتَ بسلطان :

علّمت العقل يفكك الحوادث قوانين تقشع الخرافة ،

علّمتَ المدنية تضع الطبيعة في خدمة الانسان ،

علّمت الفن يهدي الى مصدر الابداع ،

علّمت الشعر يؤلف نشيد الحياة ،

علّمت الفلسفة تقرأ كتاب الوجود ،

علّمتَ البطولة ترقى بالانسان الى مستوى الألوهة ،

علّمتَ كما علّم أجدادنا : الموجودات علامات تدل (آيات) على الآية الكلية التي هي الرحمان (علّم الانسان) فرأى (علمه البيان) فأفصح ، (علّمه القرآن) فقرأ ، قرأ آياته تعالى .

وسيبقى تعليمك صوتا صارخاً في الصحراء حتى تستكمل هذه الأمة بعثها فتعرفه وتتعرف اليه .

وعندئذ نحيي ذكراك ، لا في الاجتماعات والمهرجانات ، بل في صمت القلب يسمع القول الأول حقاً وهداية ووجوداً .

الكلمة العربية والوجدان القومي

صدقي اسماعيل

« الحياة تمهل الموت »(١)

بهذه العبارة الموجزة يحاول زكي الأرسوزي ان يضفي على التجربة العربية في أولى مظاهرها — كما تمثلها الحياة الجاهلية ، صفة العنفوان الجامح الذي يرفض الاعتراف بأي تراجع عن الفعل ، أو اذعان للقدر . وكثيراً ما كان يستشهد بهذا البيت ، على انه تعبير عن استمرار هذا العنفوان في الحياة العربية .

اذا م القى بين عينيه همه ونكب عن ذكر العواقب جانبا (٢)

---

(١) العبقرية العربية في لسانها — ص (١٤٢) .
(٢) سعد بن ناشب — شاعر اموي .

ولم يكن في مثل هذه الصورة ، ليحرص على روح الفروسية في هـــذا النموذج الانساني ، مقدار حرصه على الالتفات إلى الماضي البعيد ؛ والعودة إلى الينبوع . ان مسألة إعادة النظر « في بنيان الحياة العربية » ، هي التي تعنيه ، قبل كل شيء . وفي هذه المسألة بدا له التناقض منذ البداية بين ماهو «تاريخي» يضعه الواقع في مراحله المتعاقبة ، وبين مايدعوه «بحقيقة الأمة العربية» . وقد وجدنفسه في أشد المراحل اضطرابا وانهياراً من حياة العرب المعاصرين ، في حين بدت له حقيقة الأمة منذ ماضيها البعيد أشبه « بمنارة يتموج شفقها بموج الحياة التي عبرت عنها »[٣]، دون ان تقوى جميع الشروط الخارجيـــة – وهي في نظره صورة « القدر » الدخيل – على إخمـــاد جيوشها أو القضاء عليها ، بل ان جميع المحن ومظاهر التردي في واقعها الراهن ، لتحفزها على الانبعاث من جديد ، لا لكي تستعيد الصحة والقوة والإرادة فحسب ، بل لكي تحمل إلى العالم أيضاً ، رؤية حضارية جديدة ، لابد منها لإنقاذ الحضارة .

واذا كانت فكرة « الانبعاث » تعني التأكيد على ان هناك شيئاً من الموت والاندثار يمثله الواقع العربي الراهن ، فان شعار « الانقاذ » الحضاري الذي يلوّح به الأرسوزي في جميع كتاباته وأحاديثه ، ينطوي على شيء من الادانة الجذرية للعصر كله ، رغم ان الأرسوزي يعترف بأن حضارة العصر قد بلغت أوجها في العالم الحديث .

في مثل هذا الموقف الفكري يبدو الأرسوزي نموذجاً للمثقف المتحرر من ناحيـــة ، وهو يتذرع بنوع من شمول النظرة الفلسفية لكي يعلن وصايته

---

(٣) العبقرية العربية – ص (١٧٢) .

الملتزمة في مجابهة ازمات الانسان المعاصر ، مثلما يحمل ، من ناحية ثانية ، ملامح المناضل العربي الذي أخطأته كل أساليب العمل ، ومبادرات الكفاح الجماهيري، غير أنه رفض التراجع عن اداء مهمته الثقافية وعن أهدافه القومية .

ثمة دافع رئيسي كان يمنعه عن هذا التراجع ، يرجع إلى إيمانه العميق بأن « الرؤية العربية » للعالم على نحو خاص ، ليست من أجل العرب وحدهم ، بل تتناول المصير البشري كله ، وأن الأهداف القومية ليست من تصوراته الشخصية وتجاربه الفردية ، بل هي حصيلة لتجربة الجيل الذي ينتمي إليه ، جيل الرواد من دعاة القومية العربية ، والتحرر الاجتماعي ، بين الحربين العالميتين ؛ وميزة هذا الجيل انه اكتشف – على تعدد إتجاهاته العقائدية وتباين أساليبه – ان العقلية العربية بدأت تتحرر من فكرة الاصلاح والتطور الجزئي البطيء وقد عرفت بها بوادر اليقظة والوعي في الفكر العربي منذ نهاية القرن الماضي – وتنزع إلى شيء من الالتزام « الثوري » بالقضايا الجماهيرية التي كانت تفرض على الفكر ، شعار المصير العربي الواحد ، وشعار التنظيم الثوري ، الطليعي ، من أجل تقويض « المجتمع القديم » ، وتجريد الانسان .

ومع ان شعار الثورة لدى هـــذا الجيل ، كان ينطوي منذ البداية على ضرورة التذرع بالعقائدية في ممارسة النضال الجماهيري وفي قيادته ايضاً والتخطيط له ، فإن طبيعة المرحلة كانت تحدد الأهداف المرحلية لهذا النضال في إطار سياسي محض : التحرر من الاحتلال الأجنبي ، تكوين بنية جديدة للحياة السياسية تقحم جماهير الشعب في المعركة ، استخدام التنظيم السياسي والتجارب النضالية العفوية أيضاً لتكوين عقلية جديدة تستطيع ان تتبين التردي الحضاري في شتى الميادين ، وفي طليعتها إستمرار وراثات « الإنحطاط » في نظام الدولة . وليس من السهل

ان تعد النزعة الثورية في هذا المجال ، مظهراً لصراع الأجيال في الثلاثينات ، أو شكلاً من أشكال التغير الإجتماعي أو السياسي ، تمليه الانتماءات الطبقية ، لقد كان المحور الأساسي معايشة النضال الشعبي في تجاربه اليومية للانعتاق من أغلال الاستعمار الذي كان يتعدى حدود السيطرة والاستعباد ، إلى فرض الهوان القومي وتحدي الكرامة الانسانية ، ومن ثم كان الجميع ملزمين بالرد والمجابهة المباشرة .

وفي هذا مايفسر الالتباس الذي كان يطبع تلك المرحلة في تحديدالمفاهيم الثورية عن طبيعة التغيرات الجـــذرية الحاسمة التي رفض الجيل - من أجلها - شعـــارات الاصلاح والتطور والتريث في معرفة الشروط الموضوعية للعمل التحرري .

وفي غمرة هذا الإلتباس بدأ الأرسوزي تجربته الفكرية ، من ممارســة قيادية للكفاح الجماهيري ، غنية المعاناة مزدحمة الأحداث ، أسفرت عن إخفاق سياسي مؤلم ، ولكنها انطوت ، منذ البداية،على أحد المنجزات الطليعية الأساسية في كل عمل ثوري حق ، هو استجابة الجماهير خلال ثلاث سنوات أو أقل (١٩٣٦ - ١٩٣٩) اكتشف الأرسوزي في بيئة محدودة ، صغيرة،من الجماعات العربية تضم الطوائف الدينية والاقليات القومية والانتماءات الطبقية المتوارثة ، ان يقظة الوجدان القومي يمكن أن تفجر طاقات لا حدود لها من ارادة الكفاح والصمود ، حين يكون هناك خطر حقيقي يتهدد مصير الأمة . ومع ان هـــذا الخطر في البداية ، لم يكن في وعي الجماهير اكثر منانتزاع الأرض ، والخضوع لسلطة اجنبية جديدة ، في مرحلة من المقاومة الوطنية تنبىء بحتمية التحرر ، فان الصيغة التي وضعها الارسوزي أمام الشعب فيهذه التجربة السياسية ، كانت تتسع

يوماً بعد يوم ، لكي تشمل في النهاية كل مايتناول قدر الانسان العربي المعاصر ، وقد ورد البؤس والحرمان والاضطهاد ، منذ أجيال ، واذعن لتحكم الدخلاء ، وتجزئة الوطن ، وتمزق الكيان القومي . ومنذ ان بدأ يتفتح للحياة ، ويستمد من تراثه الحضاري البعيد ، ما يسوّغ له استعادة جدارته الانسانية ، والمشاركة في صنع التاريخ المعاصر ، يجد نفسه في اقسى مواقف التحدي . انه مهدد بالتشرد والابادة . ان طبيعة الاستعمار الغربي ، وقد امدته المجتمعات الصناعية الكبرى، بكل اسباب التفوق والسيطرة تحتم عليه استغلال الشعوب ومقاومة نزعاتها التحررية بكل ضراوة .

غير ان الارسوزي لم يتبين من اسباب هذه الحتمية إلا ماهو تاريخي محض ، يتناول الخطوط العريضة لسمات العصر الحديث : سيطرة « الذهنية » التي تمثل ارتباط العقل الاداري بالطبيعة وتبني قوانينها حتى في الشؤون الانسانية، مثلما تمثل اندفاع المجتمع الحديث في تحقيق المنجزات « التقنية » ، على انها التعبير الوحيد عن « وجهة النظر » الحضارية في المصير الانساني، لدى الأمم الاوروبية. وليس المهم هو « المضمون » في « وجهة النظر » هذه ، (العلم والصناعة والعمل، والنظام الآلي ، وقيم المصالح وما يتفرع عنها من سطوة الرأسمالية والحروب الاستعمارية .. الخ) بل المهم هو القوة التاريخية الكامنة وراء كل ملامح العصر وأحداثه الكبيرة في هذه المرحلة :

« لكل مرحلة تاريخية طابعها ، وطابع هذه المرحلة : القومية ، فمن الوجدان القومي يستوحي فيها الناس مثلهم العليا ، وبالاستناد الى المصالح العامة تُسن فيها الشرائع وتنظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية . حتى اذا ما وقعت الحرب بين دولة واخرى في هذه المرحلة التاريخية ، فانما تقع باسم الامة ، واذا

حصل انسجام بين منظومات دولية فمرد الانسجام الى توافق المصالح بين الأمم ».[1]

في هذا الاطار ، تأخذ التجربة الجماهيرية في علاقاتها بأية قيادة طليعية ، صيغة جديدة . ان هناك ما يتجاوز حدود المنجزات النضالية المرحلية ، في كل معركة تخوضها الجماهير لمجابهة التحدي الاستعماري او الانعتاق من التردي الاجتماعي. انه الاعتراف منذ البداية بان القوة الحقيقية هي - على حد تعابير الارسوزي - صبوة الحياة وإرادة الحرية في هذا القطاع البشري « اللا شخصي » ، و « غير المحدد » ، الذي هو الجمهور .

وليس الجمهور شتاتاً من الافراد والجماعات، تتوزعها المصالح والانتماءات المختلفة ، او تتلاعب بها اشكال الانقياد لوصاية الآخرين ، او زعامائهم ، او تفرض عليها التصورات الجاهزة ألوان القهر او القمع ، بل انه كيان متلازم العناصر والوظائف ، حيوي الفعالية ، اقرب الى البنية العضوية في الكائن الحي. ومثلما تجسد العضوية في نشوئها ونموها ، ماتنطوي عليه حياة هذا الكائن من نزعة الى التفتح والنضج والازدهار ، يجسد الجمهور في مؤسساته واعرافه وتجاربه خلال حقب التاريخ كل ما هو كامن في بنيته الانسانية ، من القيم التي تعبر عن رؤيته للعالم ، ووجهة نظره في مصير الانسان .

تلك هي الكلمة الاولى في التعريف « المثالي » للأمة ، كما يمكن ان يمثلها الفرد او الجماعة ، او جمهور البيئة المحلية، والجماهير الواسعة في ارجاء الوطن كله. الأمة هي ما وجد اولاً ، بالفطرة ، ومنحت كل ابنائها وجداناً مشتركاً مثلما

---

(١) بعث الامة العربية - صفحة (١)

تنبع الحياة بذور الفصيلة الواحدة ، من نوع الكائن الحي ، قوام بنيانها المتميز . ومن ثم فلا مجال للحديث عن أية « صيرورة » يليها الحوار الجدلي بين الأمــة والشروط الخارجية ؛ وليس في تكوين الامة ماتصنعه الاحداث مثلا « أو يتلقى اي نظام من الخارج ، أو يخضع للقدر ويتكيف بتموجاته . »[1]

وعلى الرغم من هذا الطابع « الصوفي » الذي تبدو به الأمة « حقيقة » « فوق التاريخ » ، فانها في تصور الارسوزي تحمل التاريخ كله في اعمق جذوره الراسخة ، فهي من ناحية ، تنفرد بوجهـة نظرها في معنى الوجود الانساني على الارض ، وتصنع ، من ناحية ثانية ، تراثاً اصيلاً هو وحده الذي يتيح لابنائها سبيل الحياة الغنية ومجال العمل المبدع ، مثلما يكون دعامة لا غنى عنها ، لتقدم الحضارة الانسانية .

حين يتاح للأحداث القومية والمظاهر الثقافية ، وتجارب الحياة المشتركة ، أن تستقطب الوعي الجماهيري في مثل هذا التصور ، ينطلق الوجدان القومي في حفز الجميع على التزام المصير الواحد . « فهم مسؤولون عن بنيان مجتمعهم الذي ينشئون هيكله تحقيقاً لغايتهم في الوجود ، الهيكل الذي يسلك منه الأحفاد مابنى الأجداد ، فيقوّمون شخصيتهم بما انطوى عليه هذا الهيكل من رموز»[2] .

ومع أن هذه المسؤولية تتناول الجانب الأخلاقي الذي يبدو فيه الارسوزي نموذجاً للمفكر التقليدي «المحافظ» ، الى ابعد الحدود ، فان عملية تقويم الشخصية ، تبدأ لديه من وعي التجربة التقنية التي أملت على العرب منذ القدم ابداع اللغـة العربية . واذا كان من الصعب ان نلتمس من خلال هذا الوعي ملامح موضوعية

---

(١) العبقرية العربية — صفحة (٦٢)
(٢) العبقرية العربية صفحة (١٤٧) .

الوجهة نظره في الأمة والقومية ، فان نظريته في اللغة – وهي كما يقول «اكتشاف أساسي في نشأة اللسان وكيفية ايجاده ..»[1] تحمل اكتشافاً اشد خطورة هو أن اللغة في حياة الامة هي عمل فني محض . لقد انطلق في هذه النظرة من الدمج بين النظرتين المعروفتين في نشأة اللغة : نظرية الالهام الإلهي ، والنظرية الطبيعية. وتقوم الأولى على ان المسميات تحمل الاسماء منذ بدء الخليقة وان الكلام الذي تحدده الألفاظ ، ليس الا وحياً إلهياً تفرد به الانسان بين الكائنات الأخرى . أما النظرية الثانية فهي ترجع نشوء اللغة الى مصادر أساسية في اصوات الطبيعة يمكن حصرها في عدد محدود من الإيقاعات الصوتية تصدر عن ظواهر الطبيعة ، ويستمد منهـا الانسان مقاطع اللفظ ، ثم ينشيء على غرارها كلمات المخاطبة وعبارات التفاهم .

وفي كلا الحالين تبدو اللغة في تكونها نوعاً من الحوار بين فطرة انسانية كامنة ، وبين الظواهر الطبيعية التي تمنح الانسان ادواته المحسوسة في صنع الكلام . غير ان الارسوزي لا يعترف بمثل هذا الحوار ، على النحو الجدلي المألوف. فليست اللغة في نظره وسيلة للتفاهم أو الاتصال « الوجداني » بين الناس فحسب ، كما هي الحال في علاقة الانسان بالأدوات التي يصنعها لتأمين حاجاته والسيطرة على الطبيعة ، بل ان اللغة هي الصيغة الحية التي اختارها الوجدان القومي لكي يعبر بها عن طبيعة الامة ومعنى وجودها وتطلعات ابنائها الى الحياة الحرة المبدعة ، وبكلمة موجزة، ان المضمون الانساني لبنيان اللغة هو خلاصة التجربة الاخلاقية والابداع الفني في وجود الامة .

---

(١) العبقرية العربية (مدخل الكتاب) .

« ليست الحياة رسماً ، ولكنها فن »[1] . في الرسم تنعكس الأشياء كما هي في الواقع المحدود ، الخاضع للتكرار والعادة . ومع أن الكائنات الحية تتجاوز تساوي المادة في الفعل (العمل) وردته (رد الفعل) ، فتجيب بحسب طبيعتها على نحو يتناسب ومرتبتها في السلسلة الحيوانية[2] ، فان الحياة تنزع في الانسان الى تجاوز الأشياء وما يحمله التفاعل بين الفعل ورد الفعل من طابع آلي يستغرقه الزمان والمكان . انها تستنجد بصور الأشياء . وعلى الرغم من ان الصورة هي من صنع الخيال ، فانها تشير الى شكل الشيء وصيرورته في آن واحد[3] . ان الخيال يلجأ في صنعها الى الاصطفاء معتمداً على ذكريات التجارب المختزنة ، . مثلما يستدل الانسان على صلاح التجربة بما تبعثه من اللذة ، ينبيء الفرح أيضاً بصدق الخيال [4] . والخيال الصادق هو الذي يجعل قوام الصورة بتآلف عناصرها ، في المعنى الذي انبثقت منه .

على هذا النحو المؤثر بالمفردات الفلسفية الخاصة ، بفكر الارسوزي ، يبدو « المعنى » ، في نهاية المطاف ، نقطة الانبثاق في العمل الفني . لقد اطلق على تجربته الفكرية كلها هذا الاسم « فلسفة المعنى » .

« لقد خيلت النجوم لأجدادنا نوافذ يشرق منها المعنى بنوره على الكائنات ، فإن ائتممنا نحن هذه الصورة الشعرية بنسبة المكان لعالمنا (عالم التجربة المحسوسة) أدركنا فيها حينئذ رمز بنيان حياتنا فردية كانت او اجتماعية »[5] .

---

(١) العبقرية العربية صفحة (١٣٠) .
(٢) العبقرية العربية صفحة (١٣١) .
(٣) العبقرية العربية صفحة (١٣٣) .
(٤) العبقرية العربية صفحة (١٣٦) .
(٥) العبقرية العربية صفحة (١٣٣) .

لكي نتبين حقيقة « المعنى » ، من خلال هذا الرمز ، لابد من العودة الى الحياة ذاتها، ليس من أجل تفسيرها ، أو البحث عن نشأتها وغاياتها ، على النحو الذي تهدف اليه العلوم والنظريات الفلسفية المألوفة ، بل لاكتشاف القيم التي تمليها طبيعة الحياة على الانسان[1] ، ويلزمه الوجدان القومي بتجسيدها في الواقع الحي . غير ان مايعنينا من هذا الاكتشاف هو ممارسة الحياة ، بكل عنوتهـا وعنفوانها (وهو ما أتاح للامة أن تبني كيانها وتبدع حضارتها في عصورها الذهبية: الجاهلية والاسلام)، ومن ثم ، فان نقطة البداية هي الاهتداء الى حدس القدامى لمعنى الوجود البشري : اننا لانملك من مظاهر هذا الحدس إلا أحداث التاريخ المندثرة ، والذكريات الجماعية المتوارثة ، وهي جميعاً لاتلزم بالمواقف الحية في تجربتنا المعاصرة . غير ان دعامة اساسية في قوام هذه التجربة ، ماتزال راسخة الجذور مثلما كانت في الماضي البعيد . هذه الدعامة هي الصفة « البديئية » التي يتسم بها تكوين اللسان العربي ، ويمكن أن تستعاد في تجربة الحياة . من خلال هذه الصفة تبدو الحياة عملية ابداع مستمر بدلاً من أن تكون ظاهرة «منتهية» . ان فعل « بدأ » يحمل تاريخاً كاملاً من صور النمو والظهور والوضوح والتجدد .. الخ ، وهي كلها تشير الى ان وراء كل بادرة من بوادر الحياة ، مخططاً كامناً يتوجه الى الطبيعة لكي يتحقق ، وهو في التجربة الانسانية على نحو خاص ، يتجلى في التزامه الحقيقية « العليا » التي ينبثق عنها الوجود كله .

ومع أن هذه « الرؤية » يمكن ان تتراءى لنا في معظم مواقف الفكر المثالي في تاريخ الفلسفة ، فانه ليس باستطاعتنا ان نتناولها في تجربة الارسوزي

---

(١) العبقرية العربية صفحة (٤٠ - ٤١).

إلا من خلال مفرداته الخاصة ، ومشاركته الحدس العربي القديم في صياغة الكلمة وربطها بالصورة التي تقترن بها في تجربة الحياة . ان للكلمة في نشأتها البدئية ، (أي المبدعة ، ذات الطابع الأصيل) ، ثلاث مصادر رئيسية : إيقاع الاصوات البشرية التي تتحدد مقاطعها الأولى في حالات المهيجات ، والصورة الشعرية التي يرد بها الخيال على الايقاع الصوتي وينشىء منها عدداً لا نهاية له من مشتقات اللفظ والصورة الحسية معاً ، يضمها جميعاً حدس المعنى ، أي انها تصدر جميعاً عن « مخطط » أو « مصمم » ، لا يتصف بأنه « محرّك » فحسب ، بل ان الابداع هو خاصته الاساسية . ولا يصدر هذا الابداع عن فكرة — كما يخيل الينا لأول وهلة — بل انه ثمرة لنوع من الوجه تنمو به الحياة في الانسان حين يتوجه الى الينبوع الذي صدرت عنه الحياة[1] في مثل هذا التوجه تشارك النفس البشرية حقيقة العالم في نوع من الوحدانية[2] ، المصممُ الأول لكل شيء ، وتبدو فيها النفس البشرية وحدها قادرة على احتواء المعاني جميعاً ، والنزوع إلى تحقيقه من خلال الحياة الحسية التي يمارسها الجسد في استجابته للعالم الخارجي . وليس الجسد الا تعبيرا « بدئياً » أيضاً عن البوادر الأولى للنفس ذاتها . انه البدن (من بدا ، وبدأ)[3] ، غير أن عناصره مستمدة من الطبيعة التي تمثل القدر الخارجي . أما « قدره » الحقيقي ، فهو كونه وسيلة خلقتها ارادة الحياة ، لكي تحقق به صبوتها إلى معنى الوجود . في هذه الصبوة — وهي تحمل النزوة (العفوية) والارادة والمشيئة معاً[4] يتجسد الوجدان القومي بالصور التي يختارها الخيال ،

---

(١) العبقرية العربية صفحة «١٤٤» .

(٢) العبقرية العربية صفحة (١٤٤) .

(٣) العبقرية العربية (مقدمة الكتاب) .

(٤) العبقرية العربية صفحة (١٣٤) .

أو يصطفيها لكي يصنع بها الكلمة ، ومثلما تنطلق تجربة الحياة في « وحدانية واحدة » أو « صوفية » — على حد التعبير المألوف — تكون التجربة الفنية نهاية المطاف في علاقـــة الانسان بمعناه « السامي » ، انه ملزم بأن يتخطى حدود شخصيته (١) في الاندماج بما عليه الحدس القومي من صياغة « جماعية » لبنيان اللغة في كلماتها البيانية « المفصحة » ، ذات الطابع الشعري . وهي ما يطلق عليه الارسوزي اسم « الوحدانية الفنيـــة » ، ويفسر به سحر الكلمة العربيه . انها تحمل في أسرتها « الاشتقاقية » الحية ، شيئاً من « معنى » التجربة الانسانية في حياة الأمة كلها ، ومن ثم فانها توقظ في الضمائر كل ما يمكن من نزعات القوة والنبل والعنفوان . غير ان دورها التاريخي الحق في المرحلة الراهنة من التشتت القومي والانهيار الخلقي والتخلف الاجتماعي في الحيـاة العربية المعاصرة ، هو ما نستطيع ان نؤكد به حيوية الامة ، وتماسكها ، ووحدة مصيرها ، وقدرتها على الانبعاث والتجدد .

إن شيئاً من الصورة الشعرية لكلمة « المعنى » يحمل هم المصير والمعاناة من أجله ، مثلمـــا ينطوي على « الهمة » والعزيمة . ولم يعط اللسان العربي من الكلمات المماثلة في صورها الحسية ، الا ما ينساب فيه « مشيئة » التحول ، والتصميم على التغير .

ومهما يكن في مثل هذه التجربة الفلسفية ، من روح ذاتية ، قد تكون موغلة في التصوف والشعر والرمز ، فانها — رغم تعقدهـــا وغموضها — اكثر محاولات الفكر العربي جرأة في وضع أساس « عقائدي » ليقظة العرب .

---

(١) العبقرية العربية صفحة (١٤٤) .

المعاصرين ، وهم يتصدون لكل تحديات العصر ؛ ولا سيما انها تقترن بانحسار المذاهب الفلسفية المثالية جميعاً في تجارب الفكر المعاصر .

كان الارسوزي يقول ما ردده « نيتشه » من قبل : « ليس الانسان الا جسراً »[1] . ولم يكن بمقدوره ، وهو يحيا بكل كيانه أولى مآسي التاريخ العربي المعاصر ، ويشهد في الوقت نفسه ضراوة الحرب العالمية الثانية ، ويتمثل مشقات المستقبل العربي ، إلا ان يتذرع بأمتن مواقف الكبرياء القومية ، وان يتجاوز الكثير من تناقضات الواقع لكي يعبر في كثير من الايمان والشعر معاً ، عن تطلعات جيل كامل من رواد التحرر العربي في مطلع هـــذا القرن ، جيل وضعته أعراف المقاومة والحرص على الكرامة القومية ، في موقع التبشير الأخلاقي وحفز الارادة المشتركة على مجابهة الالتزام الجدي ببناء الحياة العربية الجديدة . ونقطة البداية في هذا الموقع ـ رغم ما ينطوي عليه من أندفاع عاطفي وحماسة مؤمنة ـ هو فناء الأفراد من أجل حيـــاة الأمة والحفاظ على أصالتها واستمرار منجزاتها الحضارية .

---

(١) العبقرية العربية صفحة (١٦٥) .

المختارات

١ — الدولة الملكية

وجهة النظر التي نتبناها تستند الى المسلمات الآتية : اولاً ان الارض وما فيها من خيرات مجال حيوي الأمة . ثانياً ان الامة تقوم بابنائها ، وهؤلاء منها بمثابة الاخوة يكفل بعضهم بعضاً في الرخاء والمحنة . ثالثاً ان الملكية الخاصة هي وظيفة اجتماعية تحددها الدولة بما يساعدها على درء الخطر عنها ، وعلى اداء رسالتها بالافصاح عن شخصية الامة .

هذا ، وان الانسان ذو طبيعة متباينة البنيان ، فهو متطفل كسول ينزع ، من جهة ، الى استثمار جهود الآخرين واتخاذه اياهم كأداة لبلوغ مآربه الخاصة ، وهو ، من جهة ثانية ، غيور ينبعث من نفسه الشعور الذي تختلج به نفوس اخوانه فيجيب على ماتقتضيه طبيعة هذا الشعور من دعوة الى العمل من اجل الآخرين . ولو لم يشترك البشر في هذا التكوين الرحماني ذي الصبوة المثالية لما كان للكرم والجود من معنى . حتى ان كلمتا كرم وجود تشيران بنشأتهما الى تخطي الانسان حدود الانانية المغلقة الى انسانية ذات آفاق متعالية ، الاولى ، بنشأتها من كر مع اضافة حرف « م » اليها ، الحرف الذي يعبر هنا عن معنى الامتناع . فكأن الحالة التي دعت الى ايجاد كلمة « كرم » هي امتناع الفارس عن الاجهاز على خصمه عندما يكر عليه . حالة يرمز اليها المثل المأثور : العفو عند المقدرة .

وكلمة جود تعني بحسب اشتقاقها اللغوي من « جد » تتضمن معنى الجهود المبذولة من اجل حيازة الاشياء ، ومعنى آخر هو اذا كان العربي يحرص على حيازة الاشياء فانه يتخذ منها وسيلة يكشف بها عن فضائله الاخلاقية : « الجود من الموجود »

اذن فاذا كان شأن العقل ان يستخدم الأشياء كأداة ، وكان الذكي من الناس اميل الى ان يوفر لنفسه المشقة باستخدام سيقان الآخرين من ان يمشي على قدميه ، فان ثمة داعياً آخر يدعو الانسان الى حمل اثقال غيره . حتى ان هذا الداعي لهو الأعمق في النفس ، ولولاه لما شهد التاريخ اصلاحاً ولا مصلحين .

وبناء على ما تقدم نقول ان مبدأ الاخوة يجعل الاسبق من المواطنين على اشغال الارض احق من سواه بامتلاكها . على انه اذا تخلف عن استثمارها يكون قد حرم الجماعة من الحصول على احد مصادر الخيرات . وعندئذ يحق للجماعة ان تسترد الارض ممن قصر في واجبه نحو الثروة العامة . « الارض يرثها عبادي الصالحون » ، اي الذين هم اكثر صلاحاً لاستثمارها . واذن فالعمل والملكية الخاصة صنوان ، بصرف النظر عن كل تشبث قام به علماء الاقتصاد من اجل تميز القوى العضلية من الذكاء . وهل يمكن فصل الذكاء عن القوى المبذولة في سبيل انجاز العمل ؟ افلم يعرف العمل ، في لغتنا ، بالفعالية ذات القصد ؟ اي بالفعالية المستنيرة بالذكاء ؟ ولقد ذهب الذهن العربي نفس المذهب في تعريفه « الملك » و « العملة » اذ انه اشتق كلمة ملك من « ملة » : مل ملاً الثوب : خاطه خياطة اولى اعدادية ، والملل من الطريق : المسلوك . وهو اي الذهن العربي ، باشتقاقه كلمة عملة من العمل ، يكشف عن وجهة نظره في مصدر الثروة .

ونحن نستنتج من ذلك ان الاجير والمحتكر هما عالة على الجماعة ، الأول

بتقصيره عن حماية حقه ، والآخر بتطاوله على حقوق الآخرين . انهما إذ يخلان بالاعتدال يثيران الشعور بالقرف والنفرة ، اولهما بضموره وثانيهما بانتفاخه .

وللملكية جذور عميقة في الحياة ، هي والاستقلال عن اراجيف البيئة يتلازمان . فاذا ما استعرضنا الاحياء في تطورها من خلال الزمان ، وجدنا الابتدائية منها كالبرغش مثلا تخضع لأراجيف الموسم ، وهي بذلك على خلاف الانواع الحيوانية الراقية كالفرس مثلا ، فهذه تصمد في وجه تقلبات المواسم خلال السنة . وهل يرجع اختلاف الاحياء في مراتب التطور في سلسلة الانواع الى سبب آخر غير اختلافها في قاعدة ارتكازها في الطبيعة اي في الجسد الذي هو محل انكشاف الحياة ؟ واذا لقب الانسان بخليفة الله في الارض وبتاج الخليقة ، فذلك لانه هو لوحده استطاع ان يلحق الارض بالجسد فيجعل من الاولى امتدادا للآخر . افلم تقاس الحضارة بمدى اتصال المجتمع بالطبيعة ؟ ان كلمة مدينة نفسها تشير بارومتها « مدـ تبسط » الى تلك الحقيقة . وكما ان الجسد يستجلي بنموه الميول والاستعدادات ، فكذلك الارض تدعو بنقاط اتصال المجتمع بها الى تفتح الحياة العامة وازدهارها . وتدل على ذلك كلمة حضارة باشتقاقها من « حض » حتى اذا كان للانسانية من تاريخ غير تاريخ انكشاف ثقافة الامم فهو تاريخ تقدم الانسان في نقاط اتصاله بالطبيعة .

وهكذا ينتج عن الملكية الشروط اللازمة لظهور الانسانية وهي : الاستقرار ، والاستقلال بالمصير عن البيئة ، وانطلاق القوى الكامنة في الحياة ، وظهور الشخصية متفردة في نموها عن ارومة الجماعة .

ولكن انى للانسان ان يبقى على حدود الاعتدال ؟ فقد تقتضه ، بحكم تكوينه ، آفتان ، آفة تجعل من الملكية وبالاً عليه وعلى الجماعة وهي آفة انطلاقه

في الاستيلاء على الارض ودخر الثروة للثروة مستقلا عما تقتضيه حكمة وجوده في خلق الانسجام بين قطبي كيانه : العمق والفسحة . وترمز الى شطط الحياة هذا فوارق الحيوانات في الادوار الجيولوجية ، تلك الحيوانات التي لم يتناسب في بنيتها صغر الرأس مع كبر الجثة .

والآفة الاخرى هي استخدام الانسان للانسان كأداة ، بحيث يهبط الطبع البشري الى ماهو دون البهيمة .

ولئن كانت الاسرة تبقى بما يفيض في جوها من مشاعر مبدأ شيوع الاشياء سائداً بين الاقارب ، بحيث تطمس الفوارق بين الحاجات والملكية الخاصة ، فانها تبقى ايضاً الفارق بين الاخوان طامساً مثل الاسرة بذلك كمثل خلية الحياة الاولى ، حيث تطمس الفوارق الاعضاء والوظائف . وان اسطورة هبوط الانسان من الجنـــة لترمز الى ظهور الفردية فترة . وكان الفضل بنقل الانسان من النعيم طامسة فيه معالم الشخصية الى شقاوة مؤدية الى ظهور البطولة والعبقرية يرجع الى حواء التي هي رمز المرأة ذات التعلق بالارض وبتراث الاجداد .

ولكن اذا ماذر قرن المصلحة الخاصة في المجتمع الذي يقوم كيانه على مبدأ النسب لجاء الوجدان العام ، ليحد من الانانية ، الى التهذيب والى الاصطفاء بطريق الوراثة .

نضيف ونعرف حق القرى ونتخذ الحمد زخراً وكنزاً

وقيل أن أهجى بيت قيل في الجاهلية البيت الآتي للأعشى :

تبيتون في المشتى ملأ بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

ولكن لما يتحول المجتمع عن رابطة النسب إلى رابطة الجوار تصبح فيه الملكية الخاصة وسيلة لظهور الفرد على سواه .

واذا ما اختلط، في مجتمع كهذا، الدخيل بالأصيل، وكثر المهجين انحسرت العاطفية الوجدانية حتى اقتصرت على العائلة. وعندئذ يصبح المواطنون ذئاباً، بعضهم نحو بعض كما آلت اليه الحالة في عهد الاقطاع. وفي حالة كهذه، يترتب على الدولة أن تقوم بتنظيم الملكية بما تدرأ به الخطر عن حرية الفرد، وعن استقلال الجماعة.

إن مبدأ الأخوة القومية يتضمن مساواة المواطنين في حق الاشتراك في تعين المصير العام. وكيف يمارس الأخوة هذا الحق اذا كانت مرافق حياة بعضهم في حيازة الآخرين؟. ان البطولة نعمة تمد بها السماء المصطفين من البشر، وأما قانون الحياة فهو مسايرة الظروف من أجل البقاء. وإلى ذلك فهل يتفرغ للأمور العامة فيرتفع الى مستوى معالجتها من لم يكن ممتلكاً بأسباب المعيشة، ومن ثم كيف تستطيع الدولة أن تدرأ عنها الخطر اذا كان معظم أعضائها مشلولي الارادة؟ بل كيف يتسنى الأمة أن تفصح عن حقيقتها فتحقق حكمة وجودها كافة إذا لم يكن أبناؤها على مستوى الحرية، المستوى الذي يسمح لكل منهم أن يعبر عن عبقريته من وجهة نظره الخاصة؟ ان الدولة تقوى بأعضائها، والاعضاء يقوون اذا استوفى كل منهم شروط طبيعته الخاصة. والتاريخ عبر عن زوال الامم عن مسرح العالم، فهل تقوى دولة أبناؤها موزعون بين ملك ورعية، بين اقطاعين ورعاع على الصمود في وجه دولة أخرى أبناؤها ملاكون أحرار! ان الذهن العربي نفسه باشتقاقه كلمة المِلْك والملك من نفس المصدر ليدل على أن الامة التي تتألف من ملاكين أحرار، يدافع كلٌ منهم عن حياض الوطن دفاع المالك عن المملكة.

وثمة نتائج أخرى للخلل في نظام الملكية منها الوجهة الاخلاقية للمسألة:

فاذا اغتصب أحد حق غيره بعث في نفس المظلوم شعور الحقد . واذا المظلوم قصر عن حماية حقه ذل وخنع . وهكذا يصبح الوطن مسرحاً للمستبدين والرعاع. واذا انحدر الفلاح الى الدرك الاسفل فأخذ يختلس من ثمرة أتعابه ما يقوم بأود حياته خلسة من الملاك لجأ الى الكذب والنفاق والى ارتكاب غيرها من الموبقات. وأما المستبدون المحتكرون، وهم من المجتمع بمثابة السرطان من الجسد، فيتصرفون في الشؤون العامة تصرف اثم وخيانة فتصدق فيهم الآية : فسقوا فيهـــا أكابر مجرموها فدمرناها تدميراً . ، وهكذا يتحول الملك عن وظيفته الاساسية ، التي هي صقل الشخصية واظهار الاخلاق الفاضلة الى افساد كيان الامة ، وجعلها قائمة على تناحر الطبقات .

استبداد وخنوع . كلاهما يعمي البصيرة ويضعف الهمة . وان ما انتهت اليه بلادنا من بؤس وخراب انما يدل على مساوىء توزيع الملكية عندنا . واذا كان الفساد في نظام التملك يبعث الشراهة عند المحتكرين ويسبب زهد الاخرين في الحياة ، فان اعتدال هذا النظام يحول المملكة من صحار تعبث فيها التيارات الى غابة تفل أشجارها من حدة العاصفة .

يتساءل المرء بأي الامرين يبدأ الاصلاح : أبتحسين حالة الفلاح واعداده كمواطن الى مستوى من الرفاه يؤهله لوضع القوانين وللاشراف على تنفيذها ، أم بتحسين أسلوب العمل في الزراعة ؟

فما دمنا نستوحي مشروع الاصلاح من مبدأ الاخوة القومية ومن مبدأ ايجاد دولة عربية ذات سؤدد ومنعة ، نرى الوجهة السياسية الاخلاقية للمسألة أكثر أهمية من إغناء الثروة العامة .

ونحن نرى أن يبدأ الاصلاح بتحديد الملكية الزراعية ، تحديداً يحصل به كل من الفلاحين على بيت ومزرعة . وأما النهج الذي نرتئيه فهو أن تستصدر الحكومة قانوناً تمنع به الدوائر العقارية من تسجيل الملك ، فيما بعد ، على أي اسم إلا في حدود مقدرة المشتري على استثمار الارض استثماراً مباشراً ، دون الاستعانة بالاخرين كأجراء ، وحدود المقدرة على استثمار الارض ، يعينها مجلس المحافظة ، متخذاً بنظر الاعتبار امرين: اولهما استعداد الارض على الزراعة ، وثانيهما كفاءة الارض لإعالة المزارع هو وذويه المكفل باعالتهم بحكم الطبيعة . وللمزارع الحق في ان ينقل ملكيته لآخر على ان يراعي المبدأ العام وهو الاستثمار المباشر ، لا بواسطه الأجراء . وبهذا التدبير الاخير يبقى الريف يمد المدينة بعناصر فتية تقي بها الامة من التدني فالزوال .

واما تطور الزراعة وما يلزم هذا التطور من نفقات فتقوم بها الجمعيات التعاونية بين المزارعين مقام رأس مال الحضر من اهل المدينة. وللتعاونيات وجهة انسانية ، يجب ألا نغفل عنها ألا وهي تدريب الطبقة العاملة على ممارسة الحياة النقابية من جهة ، وعلى إنماء روح التعاون بين المواطنين ، من جهة ثانية. ومـــا احوجنا نحن العرب الى انماء هـذه الروح التي تتصف بالحضارة الحديثة ، الى قيام الاخوان بالمشاريع الكبرى متعاونين .

وهكذا ينتج عن تحديد المكية الزراعيـة نتائج سياسية واخلاقيـــة واقتصادية عمرانية .

واما اسلوب العمل في الزراعة فأمر التقدم فيه منوط بتقدم الفلاحين في الخبرة العلمية وفي مدى استخدامهم للآلة الحديثة .

٢ ــ حكمة وجود الدولة

من منا ، نحن العرب المعاصرين ، لم يحلم بإقامة دولة تعيدنا الى موكب الحضارة ، فتجعل شأننا ذا وزن في مصير العالم ؟ من منا لم يحلم بإقامة دولة تجمع العرب تحت راية العروبة فتطهر دبارنا من دنس الاغيار ؟ ومن منا لم يطمح الى شرف الاسهام في إقامة صرح هذه الدولة ؟

ولكن هل مانحلم به ونطمح الى تحقيقه نزوة عابرة ، أم هو شوق يتمخض عنه صميم كياننا ؟ ان الإجابة على السؤال تستلزم سبر أغوار الانسان وتحليل الظروف التي تكتنفنا كعرب . وها نحن نحاول ذلك مظهرين فيما يلي أصول الدولة ومهامها :

لما اشتق الذهن العربي كلمة إنسان من الأنس (انس) دل على حدسه في ان الاجتماع أصل في الطبع البشري ، دلالة يلتقي بها مع أرسطو الملقب بالمعلم الأول . ألم يعرف فيلسوف اغريقيا الإنسان بأنه حيوان اجتماعي بالطبع ؟

ولما أنشأ الذهن العربي صيغتين للجمع ، صيغة لجمع العاقل (السالم) ، وأخرى لجمع الأشياء (المكسر) أدرك أن علاقة الفرد بالجماعة تختلف عن علاقة الشيء بالكومة . فالأولى تقوم بذاتها بينما الثانية تتبع موقف الذهن ...وهل كانت المجتمعات القديمة لتسهو عن مدى تعلق الفرد بالجماعة ؟ ألم تكن عندهم عقوبة الخلع من حظيرة الجماعة أشد عقوبة ينزلها بالشذاذ من بينهم ؟

ومتى انزوى الانسان عن قرنائه أدرك مرارة العزلة وبدا له المجتمع كالهواء من الاحياء أو كالماء من السمك .

كذلك هو المجتمع على مثال الجسد ، وسط يمد الحياة بأسباب النمو والازدهار فاذا كان الجسد يستدرج بنموه الميول الى الظهور في ساحة الشعور ، فان المجتمع بتطوره يستجلي الحدس الذي عليه تقوم إنسانية الانسان .

إن تأثير المجتمع في انماء أعضائه وفي صوغه اياهم على صورته لأبعد مدى مما يخيل لاول وهلة ، عندما تتمثل أوضاع البيئة الانسانية في الذهن تنبعث معاني هذه الاوضاع من نفوس الذين تمثلت لهم ، فمثل الاوضاع العامة في بعث معانيها كمثل كلام من مقال ، بل كمثل أصداف تدعو ، بقوة سحرية ، الحياة التي أنشأها الى العودة الى مسرح الطبيعة .

... كذلك هم أعضاء المجتمع ، يرتبط بعضهم ببعض بروح مشتركة هي معنى الاوضاع العامة ، روح يتلمسها العوام (من عمي ، عمه) وينفصح عنها النوابغ (من نب نبغ) بحيث يصبح هؤلاء من أولئك بمثابة الحواس من الخلايا الأخرى في الجسد . ومن هنا يأتي مبدأ المشابهة بين أعضاء المجتمع وبين أعضاء الجسد .

هناك نظام قيم خاص بكل مجتمع ، كما أن لوظائف الحياة نظاماً خاصاً لدى كل نوع حيواني . وإذا كان نظام وظائف الحياة يخضع تكوينه لتداخل عاملين : عامل الملائمة مع البيئة الطبيعية وعامل وجهة نظر النوع في الدنيا ، فان نظام القيم هو ايضاً يخضع تكوينه لفلسفة الجماعة من جهة ، والقاعدة استقرار الجماعة في الطبيعة من جهة ثانية . ان الشريعة بناء مماثل في محاولته التوفيق بين الوسائل والغاية لفن العمارة في توفيقه بين مقتضيات طبيعة مواد البناء وبين الهام المعمار .

كل شعور يفصح عن ذاته ببادرة هي منه بمثـــابة الجسد من النفس . والبادرات الطبيعية يشترك فيها أبنـاء النوع الواحد حتى اذا ما مثلت في ذهن أحدهم بعثت في نفسه الشعور الذي تعبر عنه ، ومن هنا نشأ التفاهم الرحماني بين الاحياء . ومن هنا بدأ التعاون بين الاخوان على تحقيق الاهداف المشتركة وعلى رفع الحيف بعضهم عن بعض . وهل العمل الا امتداد لنزوع المعنى الى التحقق.

ومن غريب الامر أن يبدو الشعور الموحى منبعثاً من النفس من أفـق غير افق مشاعر الجسد ، أي أن شعورنا بآلام اخواننا اعمق منبتاً في نفوسنا بما هو في صاحب الألم ، عمق يضفي على من بدر في نفسه هالة من الروعة ومن هنـا كان تفوق الواجبات على الحاجات . وذلك ما يوحي بأن الايثار اصل في الطبع البشري ، لا الانانية . وهل من غرابة في ذلك ؟ ألا يمثل الايثار الحيـاة نفسها في فيضها في حين ان الانانية نزوع ظواهر الحياة في التفرد فالجمود .

ان النفس تتخطى بالواجب دائرة الميول واغراضها المغلقة الى كيان رحماني متفتح نحو التسامي، وقد ترتقي النفس به حتى تبلغ العقيدة مصدر وجود النظام ، وعندئذ يتجلى لها معنى المرحلة التاريخية حقيقة انسانية .

هذا ، ولما كان الانسان ذا طبع مزدوج المظهر يتردد اثناء العمل المبدأ والغرض ، تارة يبقى على حدود الواجب ، واخرى ينساق نحو الغاية ولما كان هذا التردد يتحول الى حرية يتعين بها موقفه من المتناقضات : الصدق والكذب ، الغدر والوفاء، فقد اصبحت علاقته باخوانه تختلف عن علاقة الخلية باشقائها الخلايا الاخرى في الجسد ، عن العلاقة التي تضارع في خضوعها قوانين حتمية كالذرات الكيماوية مثلا، وحتى عن علاقة الحيوان بالقطيع في خضوعه للغريزة. وذلك ما يجعل موقف المرء ، موقف الحر بين المصلحة والواجب ، يفتقر الى دعامة تدعم ارادته

في اختيارها سبيل الحق وفي تثبتها عليه في القول وفي العمل . وليست الدولة الا تلك الدعامة التي تدعم الحق بنزعته الى التحقق .

ان للمجتمع وسائله في كبح جماح الافراد ، فهو يردع من تسول له نفسه تخطي حدود الاعتدال وذلك بالاستهجان وبالاستهزاء ، ولولا ذلك لاسترسل الناس في شهواتهم حتى اصبحوا عبيد نزواتهم ، وليس القبح الا المظهر المتبلور لطغيان الشهوات ، مظهر يرمز الى تقصير المرء عن غايته وهبوطه الى ما دون البهيمة . وإذا تطاول احد الشذاذ على حقوق الآخرين متخطياً بهذا الاعتداء حدود العدالة ، دعاه المجتمع بالقصاص الى التأمل في مبدأ الحق مصدر وجود النظام . تلك دعوة ينجلي عن التأمل فيها مبدأ الحق في النفس كما تنجلي السماء بعد العاصفة . وعندئذ يذكر الشعور بالواجب صوت الانسانية الداوي في نفوس الافراد . هكذا يستهدف المجتمع من الاعتدال والعدالة جعل أعضائه في أحسن تقويم ، جعلهم وسطا بين السماء والارض ، بين الآيات والاشياء .

ولما كان الانسان يتردد أثناء العمل بين الميل الى حاجاته وبين دعوة الحق من عل ، وكان لكل من الطورين دعامته ، الميل لذاته التي تنبعث من ثنايا البوادر الجسمانية المرافقة لتحقيق الغرض ، والحق بهاء رفعته ، فقد أصبح المجتمع يدعم الحق بالتربية وبالاصطفاء في الوراثة . .

أشاور نفس الجود ، حتى تطيعني
وأترك نفس البخل لا أستشيرها
واني لاستحيي صحابي أن يروا
مكان يدي ، في جانب الزاد أقرعا
أقصر كفي أن تنال أكفهم
اذا نحن أهوينا ، وحاجاتنا معا

— حاتم الطائي —

... ان الدولة هي نزعة الحق الى احقاق ذاته عند الناس وليست قدسية السلطة الا هالة الحق المستفاضة على رجل الدولة استفاضة قدسية الواجب على صاحب المروءة . وأما الامرة والطاعة فهما الميل المشترك الى المسابقة في تحقيق الامنية . واذا تفاوت الناس في الامرة والطاعة فيما بينهم فان التفاوت يرجع الى الاختلاف بينهم في وضوح الرأي في الشؤون الانسانية وفي تأثير هذا الوضوح على العمل بمقتضاه .

هكذا يستمد سلطان الدولة قدسيته من مبـــدأ يتعدى بنشأته حدود دائرة القوى المغلقة في الطبيعة وهكذا تفتقر الارادة في موقفها موقف الحر بين الواجبات والمصالح الى دعامة الدولة .

الزعامة

هناك أسباب أخرى تدعو الى تبلور نزعتي الانسان الى الامرة والطاعة في جهاز معين ، منها حماية حقوق الجماعة ، تراثها ومجالها الحيوي . وكلمة (سيد) تشير بأرومتها سد (حماه) الى تلك الحقيقة ، وتؤيد وجهة النظر هـــذه كلمتا « أسود وأسد » المشتقتان من ذات المصدر ، فالسبع أسد اذا حمى غابتـه من المعتدين ، والاسود هو من تخلف عن الاشتراك مع الآخرين بحماية حقيقة الجماعة . وعلى هذا فان السيادة امتداد للابوة تقوم على الكفاءة لقيادة الجماعة .

تلك هي السلطة مزيج من قدسية الحق ومن الكفاءة للقيادة ، وانما الاختلاف بين الامرة والطاعة يقوم على اختلاف في النوع فيما هو مشترك بين الجماعة .

ولما يبلغ المجتمع مستوى الحرية ، حرية الاشتراك مع العناية في تعيين مصيره ، يعيد النظر في مقومات حياته العامة ، فيبني ، على مسؤوليته ، الوضع السياسي الاقرب للافصاح عن وجهة نظره في الدنيا، وعندئذ يضاف الى سلطان الحق سلطان العهد. ألا تضارع الحرية الوحي في القدسية ، قدسية نشأتها من فوق سلسلة الحوادث الطبيعية ؟ وهل من صفة غير الحرية تسمو بالانسان حتى يصبح على مثال باريه ذاتاً مبدعة ؟

مهام الدولة

لما كانت الدولة شخصية المجتمع الواعية فقد أصبحت مهامها مهام المجتمع نفسها . وبناء على ذلك فان مهمة الدولة الأولى أن تأخذ بأيدي المواطنين فترفع بهم الى مستوى الحرية بحيث يتسنى لهم أن يشتركوا عن وعي في المصير العام ، كما يسمو المجتمع بأعضائه على موج المشاعر التي تفيض من التجاوب الرحماني بينهم الى ينبوع المكارم ، سمواً يصبح فيه كل من مواقفهم المبدعة لحمة في نسيج الحضارة . واذا ما تدفقت المشاعر في الوجدان انجرفت بفيضها الحدود المرسومة من الانانية او بتأثير العادة ، في جو كهذا ينعم الجميع بالحب والفضيلة ، بموقف يشرف منه المرء على المصير كما أشارت الى ذلك كلمة حب المتضمنة معنى الاعتلاء، بموقف تفيض منه الحياة كما أشارت الى ذلك كلمة فضيلة المشتقة من الفيض .

ومهمة الدولة الثانيـــة هي أن تنظم المجتمع تنظيماً يتمكن به كل من المواطنين من أن يجعل الانسجام تاماً بين حاجاته وبين حقوق الآخرين . ان الدولة حارس للنظام ، ومراقب على توزيع المصالح بين الناس ، ولما كان المجتمع ذا نظـــام رتيب ، وكانت كل من مراتب وظائفه تتطلب مستوى معينا من

الاستعدادات والمواهب ، فقد أصبح مبدأ تكافؤ الفرص بين المواطنين أسس القواعد في اعداد ذوي الاهلية للقيام بالمهام المختلفة للدولة .

ولكن هل تبقى وظيفة الدولة عند مساندة المواطنين في صعودهم نحو الآفاق الرفيعة حيث تزداد الحياة بهاء وحرية ؟ أولا تحثهم على التعاون على اخضاع ظروف البيئة لمشيئتهم فتجعل هذه الظروف جوا ملائماً لازدهار الحياة ؟ اذا كان الغرض من الاجتماع هو انماء الحياة بالتجاوب الرحماني واخضاع ظروف البيئة ، فان الدولة تهدف الى ايجاد الجو الملائم لان يستجلي كل من المواطنين عبقريته في حدود استعداداته ومواهبه الخاصة .

هكذا يستكمل المجتمع شروط مهامه بالدولة ، كما يستكمل الجسد شروط كيانه بعبقرية ذات تصرف في مصيرها .(١)

* * *

نشأة الدولة

قبيل ظهور الاسلام أخذت بعض الاحداث في جزيرة العرب تنبيء بهذا الظهور ، بل تكشف عما كان يتمخض عنه وجدان العرب . ولم تكن محاولات الاصلاح حينذاك الا بشائر برسالة العرب . وها نحن نقدم بعض هذه المحاولات :

اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم .. فخلص منهم اربعة نجباء . ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا ليكتم بعضكم على بعض . قالوا : أجل . وهم ورقة بن نوفل وعبد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو . فقال بعض لبعض:

---

(١) الصفحات ٣ – ١٢ من كتاب « الجمهورية المثال » دمشق ١٩٦٥

تعلمون والله ما قومكم على شيء ... فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحقيقة . فأما ورقة فاستحكم في النصرانية . وأما عبد الله فأقام على ماهو عليه من الالتباس حتى أسلم . وأما عثمان فتنصر . وأما زيد فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه فاعتزل الاوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الاوثان، وبادى قومه يعيب ماهم عليه، وكان يقول :اللهم لو اني أعلم أي الوجه أحب اليك عبدتك ، ولكن لا اعلمه . ثم خرج يطلب الحقيقة ويسأل الرهبان والاحبار حتى بلغ في تجواله الموصل والجزيرة - سيرة بن هشام .

وهناك محاولة أخرى تكشف عما كان يتمخض عنه وجدان العرب من حرص على العدالة : قال ابن هشام : حدثني زياد بن عبد الله عن محمد بن اسحق قال : تداعت قبائل قريش الى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان ابن عمرو لشرفه وسنه . فكان حلفهم عنده بنو هاشم وبنو المطلب وأسد ابن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة . فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته . فسمت قريش ذلك حلف الفضول . وقال رسول الله : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحسب أن لي به حمر النعم ولو دعي به في الاسلام لأجبت ». هذا الحلف يدل على ما كانت تشعر به النفوس الكريمة من قلق على مصير العدالة .

وهل تختلف وقعة ذي قار بيننا وبين العجم بالمغزى عن الاحلاف والمؤتمرات التي كانت تعقد حينذاك ؟ أو ليس السبب الرئيسي لهجرة الرسول من مكة الى المدينة حاجة الانصار الى زعيم تجتمع عليه الكلمة ؟.. واليك ماقاله ابو الهيثم ابن النبهان بهذا الصدد أثناء بيعة العقبة : يارسول الله ان بيننــــا وبين

الرجال (اليهود) حبالا وان قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم اظهرك ان ترجع الى قومك وتدعنا ؟ قال فابتسم الرسول ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم . أنا منكم وانتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم – سيرة ابن هشام .

هكذا كان القلق قد أخذ مأخذه من نفوس العرب ، قلق من تدخـــل الاغيار في شؤونهم ، وقلق من طغيان اليهود على اقتصادهم . وقلق دسائس الفرس والروم في اليمن والعراق وسورية . وما كان لهاتين الدولتين من نفوذ في الجزيرة العربية . وقلق على الحق والعدالة وقلق من جراء تخلف مظاهر الحياة عما كانت تتمخض عنه نفوسهم من حقائق . ياله من وضع مماثل لما نعانيه اليوم في نهضتنا الراهنة . وكما يدعونا القلق لشد أزر بعضنا بعضاً من أجل تشييد دولة عربية نوطد بها لنا جميعاً أسباب الحرية والأسباب التي تجعلنا نشترك في موكب الحضارة . كذلك كان القلق يحفز بأجدادنا ليجعل منهم منارة للانسانية . والزعيم ذو التجربة الرحمانية المثالية من الجمهور كالام من الطفلة التي تمارس الامومة طيفاً بألعابها انه يهدي بهدايته الى الأماني .

ونحن نستخلص ان الدولة تقوم على حدس مشتركة بين أعضاء المجتمع في الكيان الانساني المشترك ولو اختلف هؤلاء الاعضاء في استجلاء الحدس والعمل بمقتضاها . ان تمثل قيام الدولة على التجربة الرحمانية كمثل قيـــام الانسجام بين كلمات القصيدة، معنى تعارف عليه بين الناس ومعنى آخر تضفيه تجربة الفنان اضفاء يصبح فيه المتفرق من الكلام انظومة ذات انسجام واتساق ، فان الدولة أيضاً وضع مثالي تكشف عنه نفوس النوابغ انكشافاً يصبح فيه ماهو مشترك بين الناس من ميول اجتماعية ذا حلة أضفتها عليه التجربة الرحمانية وذلك مما يجعل من

الدولة أمنية يصبو اليها الجمهور ومن مقامها الأعلى يتلقى الناس الاوامر ، انها دعامة للنفوس في صبوتها نحو الصورة التي تتقنع فيها الأمة حقيقة تاريخية ،ولكن إذا عجزت الأمة عن إيجاد صورتها بالدولة او عن تقويم اعوجاجها في حال كونها مزورة استحوذ القلق على أبنائها من العجز او الازورار . واذن اصبح ابناؤها من العجز او الازورار . وإذن أصبح ابناؤها كمثل فنان خانته العبارة ، وأي امة اشد ابتلاء منا بالعجز عن الافصاح عن أمانينا . بل عن تقويم مافرضته علينا السياسة من اعوجاج ؟ .

ومع ذلك فان الأمر لم يبد كذلك لبعض أصحاب الرأي في هذاالشأن. لقد خيل اليهم ان الدولة امتداد للاسرة . كلتاهما تمارس السيادة بمعنى الحماية والارشاد والقدرة . وكلتاهما تحدد رغبات الاعضاء بغيةخلق الانسجام بين المصالح والواجبات . افلا ترفع الأسرة عن رابطة الغريزة بين الرجل والمرأة بالزواج فتجعل من هذه الرابطة وسيلة لغرض اسمى؟ أولا تعين لكل من ركنيها الابوين الحدود الطبيعية الخاصة بها فتخلق بهذا التخصص من الاب قدوة تتجسد فيها أماني الأبناء، ومن الأم مصدر فيض من المشاعر تنعم بها الاولاد ؟.. اولا تجيب على طبع الرجل بالميل الى السيادة ، بما في ذلك من سلطان وحماية ؟..

ان الاسرة وان كانت وسيلة يتخطى بها الفرد دائرة الغرائز واغراضها الى الانسانية ذات آفاق متعالية فهي مع ذلك بيئة قوامها المحبة تبقى فيها مزايا الافراد ومقومات المجتمع مغمورة طامسة ، وكيف لا ؟.. أليست الأخوة وما تستلزم من شيوع في الحاجات هما من الأسس التي يقوم عليها كيان الاسرة ؟..

إن قوام الأسرة المحبة وان قوام الدولة الحق المنبلج في النفس وان كانت

المحبة وسيلة ارتقاء الذهن من الطبيعة الى الانسانية . من الغريزة الى العدالة . وانما شأن الدولة هو استجلاء ماذر قرنه من نظام انساني في الاسرة . ففي الدولة يتعادل مبدأ الحق مع المصلحة تعادل تتحول به القدوة الى شرع في استجلاء الحقيقة والى اقدام على تقويم الواقع على ضوء المثل الأعلى .

التربية والتعليم

إن الانسان اذا تقدم في اسباب الحضارة تمكن من اخضاع الظروف لمشيئته وجعلها صالحة لنمو شخصيته وازدهارها . وذلك مايدعو الدولة وهي شخصية المجتمع الواعية الى تنظيم معالم البيئة بحيث يتيسر لكل من اعضائها ان يحقق استعداداته ويمارس مواهبه في حدود امكانياتها . وأما تحقيق ذلك فيستلزم امرين معاً :

١ – تكافؤ الفرص بين المواطنين .

٢ – وايجاد الانسجام بين الجمهور وبين المرحلة التاريخية الراهنة .

١ – وأما مبدأ تكافؤ الفرص ، فله مظهران : مظهر فردي وآخر سياسي . فالمظهر الأول تمليه حكمة وجود المجتمع ، التي هي تجهيز الفرد بأسباب نمو شخصيته حتى حد كمالها . ان مبدأ الأخوة القومية يدعو الى التعاون من أجل ممارسة كل منهم ما أهلته به العناية من استعدادات ومواهب ، ولقد قدمت العناية نفسها الاسرة مثالاً ينسج على منواله رجل الدولة في تحقيق العدالة الاجتماعية .

وأما المظهر السياسي ، فتلزمه طبيعة الدولة ، ان الوظائف العامة تقوم على نظام ذي رتب كل من مراتبه تطلب ممن يمارسها مؤهلات متناسبة مع رفعة

مقامها . وذلك يوجب اصطفاء الأكثر أهلية من بين المواطنين للقيام بالمهام العامة . وكيف يتحقق هذا الغرض في مجتمع لم يتح فيه جميع ابناء الأمة شروطاً مماثلة ؟ بل كيف يؤدي المواطن وظيفته بتمامها اذا اقتصرت تربيته عن الغرض ؟ . وهل تكون المؤسسات العامة على مقياس الجماعة اذا لم يشترك كل حسب استعداداته في وضع الدولة ؟

٢ - وبعد أن اوجزنا رأينا في العدالة الاجتماعية التي يقوم كيانها على مبدأ تكافؤ الفرص بين المواطنين ، ننتقل الى مبدأ آخر هو ايجاد الانسجام بين الجمهور والمرحلة التاريخية الراهنة . كنت لخصت رأيي في الامور بصورة مجازية فقلت: ان الامة من المرحلة التاريخية كالبذرة من موسمها ، فكما ان البذرة تنمو بملائمتها للموسم ، فكذلك الامة يزهو ابناؤها بانسجامهم مع الحضارة القائمة ، ونحن نعني بالانسجام فقه رموز البيئة واستقطاب تيارات الفكر فيها . ولما كانت المرحلة التاريخيـــة التي نحن بصددها تتلخص في العلوم والآداب ، وتتبلور في الصناعة والاقتصاد ، فقد أصبح انسجام الوجدان معهما يقوم على التأمل في مقوماتها وادراك كنهها .

وما هي إذن مقومات الحضارة التي تكتنفنا بسياستها وتغمرنا بمنتوجها؟ .

تقوم الحضارة الحديثة على فرضية هي ان المعقول والموجود مظهران لنفس الحقيقة فما يبنيه العقل تحققه التجربة والتجربة معيار اصدق المحاكمة ، فرضية افترضها الانسان فتكشف له الوجود عن بنيان رياضي - ميكانيكي يدأب فيه الذهن على تقريب الشقة بين العلة الطبيعية « cause » وبين الحجة الرياضية « raison » بحيث اذا ظهر الواقع متخطياً حدود المعقول دعا الذهن الى ايجاد صيغة رياضية معادلة له . واذا ما أخذت الصناعة تفتق القريحة عن معرفة

جديدة القت المعرفة المتجلية ضوءه على المستقبل . وهكذا تصبح المعرفة والعمل يتبادلان التـــأثير في نمو الحضارة على مثال التأثير المتبادل بين الحياة وبين رمزها الجسد .

- ولما ظهر صلاح الفرضية المتقدمة اصبح العقل رائد الثقافة الحديثة ، وأصبح كل ما عداه يخضع لسلطانه ، لتمحيصه ونقده ، ولما كانت خاصة العقل الأساسية هي الشعور المميز للحقيقة من الخطأ ، وكان هذا الشعور ملازماً للطبع البشري كما يظهر في ملازمته للمبادىء الرياضية عند النوابغ والعوام سواء بسواء ، فقد نجم الاعتقاد بان العقل موزع بصورة متساوية بين البشر . ياله من اعتقادأعاد الى الانسان كرامته بعد أن سلبه اياها الاقطاعيون والرجعيون بحجة واهية ، بتأثير نظرة قاصرة في الطبيعة الانسانية . ياله من اعتقاد ثبت به صلاح بني آدم للحرية في تعيين كل منهـــم مصيره حسب مشيئته ، ولمساواتهم في حق تعيين المصير العام .

وما ان تحرر الانسان من الاستبداد حتى تفتحت فيه الحياة من كوامنها فبدت رابطة الاخوة تشمل جميع أبناء الامة الواحدة بداية دعا ايضاحها الحاق الزمان بالمكان ، التطور بالميكانيك

تلك هي الحضارة الحديثة نظرة أصيلة في الوجود ، قاعدتها مناسبات ثابتة بين الأشياء وشعارها حرية خلاقة تتجلى في تطور الأنواع والأقوام .

الطبيعة هي موضوع العلم . والمعرفة العلمية هي قوام الحضارة الراهنة ، وللمعرفة العلمية مزايا عديدة أهمها أنها تجعل العقل مرجعاً في اقرار الحقيقة . ومتى تدرب العقل على العلم أصبح نزاعاً الى اتخاذ نفسه حكماً في الشؤون الانسانية ، في قبولها أو في انكارها . عن مزايا العلم هذه نتجت المفاهيم التي هي

مقومات الانسانية الحديثة كالكرامـــة الانسانية ، وقيمة الانسان المطلقة ، والحرية . مزية اخرى للمعرفة العلمية هي أنها ذات شمول مطلق ، تتخطى الحدود المغلقة للأوطان والأديان مؤكدة بتخطيها وحدة نوع بني الانسان . الى المزية هـذه يرجع مفهوم المساواة بمعنى تساوي الناس في قيمة الانسان المطلقة ، مزية نتج عنها تحريم استخدام الانسان للانسان كأداة .

٣ ـ الكادحون ملاذ الطليعة :

ماانفكت المحاولات السياسية تظهر عندنا منذ وطء الاجنبي ديارنا . ظهر حزب الاستقلال ثم توارى عن مسرح الحياة العامة ، ومن ثم تألفت من فلول حزب الاستقلال هيئة سياسية تدعى بالكتلة الوطنية كانت هذه الهيئة المؤلفة من فلول الحزب المنحل قد لاقت مصير حزب الاستقلال نفسه . ولما فقدت الكتلة الوطنية اعتبارها تفرع منها احزاب وهيئات سياسية عديدة ، لم يترك أي حزب من الاحزاب التي ظهرت على مسرح أثراً يذكر في تاريخنا .

ترى ما السبب في ذلك ؟ أكان المستعمر يدرس الأوضاع العامة فيكشف بثاقب بصره وعلى ضوء خبرته ، عما كان يتمخض الجمهور من ميول فيسبق الطليعة الى معرفتها وصوغها ؟ حتى اذا تبنى هذه الميول أعوانه شلوها ، ومتى توالت الخيبات عزفت الناس عن القضايا العامة ؟

أم كانت الهيئات التي تنشئ بحل القضية العامة تجهل التناقض بين مصالحها الخاصة وبين القضية العامة نفسها، حتى اذا تبين لها هذا التناقض فترت عزيمتها على النضال . فاكتشفها الاستعمار ؟

مهما كان سبب الاخفاق فان المنهج المتبع في جميع الاحوال واحد ، وهي اقتصار الهيئات في العمل السياسي الى الانتهازيين . بدأ العمل السياسي عندنا وقفاً على رجال الاقطاع (اغوات وبكوات) ثم تحول الى اصحاب الشهادات من اتباع البكوات والاغوات (محامين ، اطباء .. الخ) وفي الحالتين كان العمل السياسي أقرب الى اللهو واكتساب الشهرة . ومتى تمت الشهرة استغلها صاحبها في المساومة على حل المشاكل مع رجال السلطة . ولكن أحداً من

المتطفلين على السياسة لم يتشبث بحل القضية العامة . ومن غريب الأمر أن أحداً من السياسيين لم يتشبث باشراك الكادحين الذين هم موضوع الاضطهاد في النضال وتدريبهم على العمل السياسي الذي يحل المشكلة العامة التي هي مشكلتهم . كل من حاول العمل بالسياسة يعلم كل العلم ان الحركات السياسية ذات الأثر في مصير الانسانية تقوم على سواعد المتضررين من الفساد . كم كان غريباً لو توجه المسيح بدعوته الى احبار اليهود وحكام روما ؟ ولكن المسيح توجه الى الكادحين من صيادي السمك وغيرهم في دعوته فرفع بتعاليمه وباخلاقه كقدوة ومثال ، مستوى الكادحين الى وعي شأنهم ومصيرهم .

ومتى كانت الدعوة الى الاصلاح تنجح بالناس المنتفعين من الفساد ؟ مثل دعوة اصلاح كهذه كمثل من يكتب على الماء .

ولم يسلك رسول الاسلام غير ماسلك المسيح من قبل : (ذرارية بعضهم من بعض) .

هناك مثالاً مما يحيط بنا من أحداث . نحن نعاصر أعمق انقلاب في التاريخ ألا وهو الانقلاب الشيوعي . هل قام لينين زعيم الانقلاب بتوجيه دعوة الاصلاح الى الامراء والاقطاعيين الذين تجسدت فيهم الاوضاع المنحرفة ؟ أم انه قد وجه دعوته الى الكادحين من عمال وفلاحين ؟ تجنباً لانتكاسة الانقلاب نحو البورجوازية الانتهازية . حرمت الثورة الروسية على اصحاب الشهادات الاشتراك في الانتخابات العامة . هذا التدبير مستوحى من غيرة الطليعة الثائرة على المصلحة العامة . كم من حامل شهادة عندنا اتخذ شهادته وسيلة للتميز بين المواطنين ولاستخدام العلم في غير وجهته الاساسية ، ومن أولى بحل القضية العامة ممن لم يسمح الوضع الفاسد بظهورهم على مسرح الحياة العامة ؟ ان ذوي الاستعداد

للانتهازية قد نالوا قسطهم من المناصب والتشاريف وأما المغمورون فهم في مستوى العمل المنتج أي في مستوى العامل والفلاح .

ولو اخلصت الاحزاب لما يدعو اليه القادة لولوا اهتمامهم بالفلاحين والعمال فدربوهم على السياسة وتعاونوا معهم على حل القضية العامة التي هي قضية الاكثرية . عندنا مثل مأثور يقول : الحمل على الجماعة خفيف . كان العمل السياسي عندنا على عكس ما كان يجب ان يكون . كان وقفاً للانتهازيين . كانت الاحزاب تغلق أبواب السياسة في وجه الذين تمسهم السياسة مساً مباشراً .

وختاماً للمقال فاذا كانت الطليعة تريد تحقيق الاماني يجب عليها ان تعمل على ضوء التاريخ والعقل في توعية الكادحين واشراكهم في النضال من اجل غد أفضل .

٤ — الزعامة والدكتاتورية :

ان خير قدوة نقتدي بها في امورنا هي الحياة ذاتها . فاذا هي دوهمت بخطر خارجي كظهور ضبع في الغابة أو بخطر داخلي كظهور مرض مستعص مثلا ، حشدت قواها لدرء الخطر واهملت حاجاتها من أكل وشرب ونوم ، حتى اذا مازال عنها الخطر عادت الى تلبية حاجات الجسد . والامة ، اذا هدد كيانها عدو من الخارج او اضطراب في الداخل ، وجب عليها جمع قواها وتسليم مقاليد أمورها الى هيئة مختارة او الى شخص مسؤول عن مصيرها ، ولكن اذا زال عنها الخطر كان على اولي الامر فيها ان يعيدوا الامور الى مجراها . فان كانت كلمة « دكتاتور : مسيطر » . تعني الحالة الاولى ، حالة حشد القوى حتى حجز الحرية ، فان الديمقراطية تشير الى الوضع الذي تتفتح فيه نزعات الافراد في حدودها الطبيعية . وتمييزاً للزعامة الحقة عن الزعامة الباطلة ورد في القرآن آيتان: « لست عليهم بمسيطر » والنبي اولى بالمؤمنين من أنفسهم » . إن كلمة « مسيطر » تلتقي بأصلها اللغوي مع مغزى كلمة « دكتاتور » ، فتفيد إملاء الاهواء والاغراض الشخصية على الآخرين ، ولكن النبي يمثل صبوة ابناء الامة . وان تمثيل الفرد هذا لما يتمخض عنه الجمهور يظهر في الاحوال المألوفة عندما يقال : انه سبقني الى الفكرة ، والفكرة كانت تحت لساني ؛ ويظهر ايضاً في انتشار الازياء وفي شيوع الآراء كموجة في فترة معينة من الزمن ويبلغ مداه من الظهور في النبوة ، حيث تسبر اغوار الحياة ويكشف عن الحقائق الخالدة ، فتحل على ضوء ذلك المسائل المستعصية .

انّ الناس ، اذا ادركوا بالزعيم اعز آمالهم وآثروه على انفسهم ، فلأنهم يرون فيه صورتهم المثلى ، الصورة التي يسيرون على هدايتها الى تحقيق امالهم وأمانيهم .

الحرية والديمقراطية :

واما الديمقراطية فهي الوجهة الانسانية للحضارة الحديثة وهي تقوم على الاعتقاد بأن النفس تنطوي على مقوماتها : على عقل يؤهل صاحبه لمعرفة الحقيقة وعلى وجدان ذي صبوة الى الفضيلة .

ولئن كان الناس مجهزين بالعقل والوجدان ومؤهلين لمعرفة الحقيقة وللعمل بما تقتضيه الفضيلة ، فقد اصبح من الحق لكل مواطن ان ينظم سلوكه حسب مشيئته وان يشترك مع المواطنين الاخرين في تعيين مصير الدولة . وهم وان كانوا يتفاوتون باستجلاء حدس الخير ، ويختلفون بالتعبير عنه ، فانهم يدركونه متساوين ادراكهم البديهيات الرياضية .

فتنظيم الانسان لسلوكه بحسب مشيئته ، وحق الناس في الاشتراك في تعيين المصير العام ، صار كنا الديمقراطية ، الركنان اللذان يتلخصان بكلمتي : مساواة وحرية .

ان الحرية هي امنية الديمقراطية وشرط من شروط كيانها الاساسية ، فبالحرية تنمو الحياة وتزدهر ، وفي جوها يتبادل الناس اختباراتهم لاجل دعم المصلحة العامة .

ان الحرية والانسانية تتلازمان ، وانه على تلازمهما تقوم القيم الاخلاقية الفنية . واذا ماتميزت الفضيلة عن تفاعل الحوادث في الطبيعة ، واذا ما اختلف الابداع عن التقاليد المألوفة ، فان التميز والاختلاف هذين يرجعان الى الحرية .

والا ، فأين سقوط الحجرة من بطولة المسيح ؟ أو أين ضجة الامواج من اناشيد بتهوفن الخالدة ؟ أو أين الاحاديث المعتادة من روايات شكسبير الرائعة ؟

واما المساواة فهي تساوي الناس في حق تنظيم سلوكهم حسب مشيئتهم ، وفي تنظيم سلوك الدولة .

ولكن الناس ، اذا كانوا متساوين في حدس الخير فانهم متفاوتون في استجلاء هذا الحدس وفي التعبير عنـــه ؛ وذلك لان الارادة تتردد بين الحقيقة والعبارة ، بهذا التردد عن الحق ، عن قصد او عن غير قصد .

والديمقراطية ، اذا كانت تقترب من كمالها بنسبة اقتراب القانون من التعبير عن ارادة الامة ، فان مشكلة هذا النظام هي في ايجاد ارادة مستنيرة وقوية ، وذلك يتحقق بازالة الاسباب التي تحجب الذهن عن الحقيقة ، أي بنشر العلم في البيئة وزكاء شعور الناس بالفضيلة . واذا صدق القول بأن العقل السليم في الجسم السليم ، فان اسباب المعيشة هي من متممات هذه السلامة . والا فكيف تستقر الحياة وتنمو المواهب في مجتمع لم تتوفر فيه أسباب الرفاهية ؟

٥ ـ شعارات العهد تحت المجهر :

هذا العهد اتخذ له ثلاثة شعارات هي : الوحدة والحرية والاشتراكية ، فاما الوحدة فقد دلت الاحداث على أن الحكومات العربية ليست على مستوى تحقيق الامنية ، فلو أن دعاة الوحدة كانوا جادين في دعوتهم لارتفع مستوى تفكيرهم وسلوكهم الى مستوى المهمة ان كبر الهمة يتناسب مع عمق النية . هل تمثل دعاة الوحدة في خيالهم دولة تمتد من جبال طوروس حتى أواسط افريقيا، ومن المحيط الهندي الى المحيط الاطلسي . بل هل تمثلوا دولة على تخوم أوروبا في ملتقى القارات يزيد عدد أبنائها على مئة مليون نسمة ؟ ... لو تمثلوا ذلك في خيالهم لتفتحت نفوسهم عن عواطف ومشاعر من مقياس بعد الغاية . قلت قبل ربع قرن : ان العرب من قضاياهم الكبرى مثل طفل شاهد عرسا عند الجيران فطلب من والده عروسة ، ولكن اذا ناوله الاب حبة ملبس الهاه عن العروسة . قلت ذلك قبل ربع قرن ولم يزل القول يلخص حالتنا الراهنة .

واما الاشتراكية فنرى من سير الامور على ان المنتفعين من الاشتراكية ليسوا على مستوى من الوعي ليؤكدوا مكتسباتهم ضد الذين جرى تطبيق الاشتراكية على حسابهم ، لم يظهر الفلاحون الوعي والشكيمة اللازمتين لاسترداد اراضي آبائهم واجدادهم ، التي سلبهم اياها الاقطاع تحت حراب الاستعمار . ولا ندري الى اي مدى يظهر العمال الوعي لمراقبة المسئولين عن ادارة المعامل وتثبيت مكتسباتهم ، المكتسبات التي ضمنها لهم الاحرار من افراد القوات المسلحة .

ومهما يكن الامر فان ثمة حقيقة مسلماً بهـا وهي ان العالم يسير نحو انسانية متكاملة . كما ترى الدولة في تطبيق مبدأ تكافؤ الفرص دعامة للسياسة .

واذا كانت الاشتراكية تلاقي المقاومة في تحقيق مبادئها ، فان المقاومة تأتي من المترددين المتخلفين عن موجة التاريخ الصاعدة .

واما الحرية فهي مطلب الجميع ووسيلة تحقيق الوحدة والحرية والاشتراكية . اما والحالة هـــذه فيجب على جميع المواطنين العمل معا من اجل تحقيق الحرية كاملة .

مثل الحرية من ذوي المواهب والاستعدادات العالية كمثل الشمس من الاحياء الراقية . واما من يتلاءم مع الاستبداد فمثله كمثل الطفيليات التي تترعرع في العتمة ... والمظهر الاهم والاساسي المتين للحرية هو الصحافة الحرة . في حديثي الذي القيته في التلفزيون اقمت المقارنة بين جريدة تطبع ١٨ عدداً وبين جريدة تطبع بضعة ملايين . ليس الاختلاف بين الجريدتين في الرأي فحسب بل باهتمام الجمهور بالقضايا العامة ووعيه لهذه القضايا .

وحرية الصحافة تعني حق المواطنين في اصدار جرائد دون قيد او شرط . مثل الجريدة كمثل الكتاب والحكم في تقدير صلاح الجريدة هو الرأي العام ، فاذا كان الصحفي على مستوى مهمته من حيث الكفاءة والاخلاص اقبل الجمهور على قراءة الجريدة والا كسدت في الاسواق .

• • •

دور الجامعة العربية

لو اتخذت الجامعة العربية محل تنسيق العمل بين الأقطار العربية لاستغنت هذه الأقطار عن التمثيل الداخلي فيما بينها كما يقع بينهـــا وبين الدول التي تخشى جانبها فتود الاطلاع على تطوراتها . لو تم ذلك لوفرت الحكومات العربية نفقات ١٣ سفارة باعتبار ان لكل قطر سفارة . لماذا لا تكون العلاقة بين الدول العربية على مثال ما هي عليه بين لبنان وسورية ؟ . .

مهمتان لسورية العربية

امام عرب سوريا مهمتان يجب عليهم القيام بها على خير وجه هما الاسهام في تطوير الوطن العربي وتحويل سوريا الى دولة مستكملة شروط كيانها بحيث تصبح مثالا يحتذى من قبل جميع العرب ومركز استقطاب للطليعة العربية .

الجنسية العربية

لماذا لاتستفيد الدول العربية من تجربة العصر فتعلن وحدة الجنسية العربية ؟.. فاذا كان العرب ليسوا على مستوى إقامة دولة موحدة ، فمن حقهم ان يعاملوا بعضهم معاملة الاخوان أسوة بدول تتكلم لغات مختلفة وتدين بمذاهب مختلفة ولا سيما انها كانت أمس في حالة حرب !..

فلو تجرأت الحكومات العربية على اعلان وحدة الجنسية العربية لكان هذا الاعلان أدى الى إعفاء العرب ، في تجوالهم في ديارهم ، من شروط جواز السفر كما كان اعفاهم من شروط الإقامة الخاصة بالأجانب ومن شروط ممارسة العمل حيثما حلوا . عندئذ يكون المسؤولون قد قاموا ، في حدود امكاناتهم ، بالواجبات المترتبة عليهم نحو الأمة العربية .

الأرسوزي يتكلم

حامد حسن

أسكتُ جائعةَ الرغا ب، ورحتُ أطعمها شبابي!!
وأنا التراب، ولستُ إلاّ من عطاءآت التراب
ما كنتُ في فلكٍ، وأنزلـ ني مع الألقِ المذابِ
أنا ما هبطتُ من النجو مِ، ولا أتيتُ مع السحابِ
أنا للثرى، لا للسماواتِ العُلى شرف انتسابي
سافرتُ عبر الشرق، ينـ ـقلني الترابُ إلى الترابِ
سافرتُ، والتاريخ في دربي خفيتُ النور، خابِ
وحملتُـهُ في ناظريَّ وعشتُه عبدَ ارتيابي
أنا ما اعتصرتُ الخمر، لكـ ـن عِشتُ في خدَرِ الشرابِ

* * *

يا لَتَ !! ماذا أأنتَ ؟ أســئلةٌ تطـلُ بـلا جواب !!

ماذا ؟ أتفتَحُ نِصفَ نا فذةٍ ، وتغلق ألفَ بابٍ ؟؟

ائطيلُ في التاريخ ، في أكذوبةِ الدهرِ اغترابي ؟؟

يا لاغترابِ كرامةِ الانسـ انِ في ذهنِ المرابي !!

* * *

أنا في انتّضاع السفّح ، لا في العُنجهيّةِ في الرّوابي

وأنا انسفاحَ البوحِ في رَعشَات أوتار الرّباب

ضيّعتُ إنسَاني ، غدَ داةَ زرعتُ عيني في الضباب

الأخلاق

عند الأرسوزي

ظافر عبد الواحد

انطلق الأرسوزي من (فقه اللغة) إلى (فقه المعنى) ، هذا التعبير الذي ارتضاه بدل (الفلسفة) . وحاول تفجير الكلمة، ليبعث منها سليقة عربية تعيش في القرن العشرين وتجيب على مشاكله الأخلاقية .

فهو يلاحظ اشتراك الخير والأخلاق ، في حرف الخاء . واشتقاق الخير من خرير الماء ، يدل على فيضانه عن المثل الأعلى . بينما يشير حرف القاف ، إلى المقاومة التي يلقاها الخير . لذلك فهو يدعو إلى التعالي على الأخلاق الاجتماعية ، وليس العدل عنده إلا مرحلة نحو أخلاق بلا جزاء . ولكن المثل الأعلى رغم تعاليه ، تابع من النفس . فالعلاقة بين الإنسان والرب - مصدر المثل - علاقة رحمانية ، كالعلاقة بين الابن وأمه : لاينقطع اتصاله بها بعد مغادرة الرحم .

وهذا ماجعل الأرسوزي يرفض الثنائية ، التي أقامتها الفلسفة الغربية بين الذات والموضوع . فاستهجن الكلمتين اليونانيتين (فيلوصوفيا) و (ميتافيزيقا) .

فقد فصلت الكلمة الأولى بين (الحكمة : صوفيا) و (صديقها : فيليا) . وزادت الكلمة الثانية (ميتافيزيقا) الطين بلة . وفيثاغورس هو الذي نحت كلمة (فيلوصوفيا) ، على مايبدو ، فهناك من يرجعها إلى هيرقليطس وأيا كان ناحتها، فقد استكثر الحكمة على الإنسان، فالإله هو الحكيم، وحسب الإنسان صداقة الحكمة . وألف أرسطو كتاب (الطبيعة : فيزيقا) . وجمعت فصول متفرقة تحت عنوان (ميتافيزيقا) ، أي مابعد كتاب الطبيعة . وترجم الشراح العرب (ميتافيزيقا) على أنها (ماوراء الطبيعة)، واشتركوا مع الفلاسفة الغربيين في القرون الوسطى في قصرها على الموضوعات الإلهية ، طالما بحثت في الأسباب الأولى ، والسبب الأول في القرون الوسطى هو الله .

والأرسوزي أفلوطيني[1] ، لايؤمن بالتعالي ، الذي هو من سمات الفكر السامي. فالنفس حين تفقه معناها ـ عند الأرسوزي ـ تستمد الأخلاق بالفيض . والفيض أو الفضل هو الزيادة التي تتمتع بها النفس فتصرفها تضحية . والفضيلة من الفضل ، لكنها تنقلب إلى (تقوى) وتصبح ممارسة الأخلاق عادة ، وكأن الإنسان (يقتات) عندما يؤدي الواجب خوفاً من العقاب واتقاء له .

وإذا كان من العسير على المواطن العربي ، من حيث ثقافته وانهماكه في عمله ، استمداد هذه المعاني من نفسه ، فهو بحاجة إلى فقهاء يفهمون هذه المعاني ويجددون قواعد الأخلاق ، ويبقى على المواطنين العاديين ممارسة العادات الأخلاقية . والأخلاق الفردية تنبع من الميل ، فلا تغرننا الطريقة العقلية التي يتبعها المرء لتبرير الميل . وحين يفقه الإنسان المعنى ،يؤدي الواجب دون إلزام. فإذا انقطعت النفس عن فقه معناها ، أرسى التقدم العلمي الأخلاق على أسس جديدة ليعوض عن فقدان الأصالة . والعادة من العودة ، فالمرء يعود إلى الفعل.

---

(١) أفلوطين صاحب نظرية الأفلاطونية الجديدة في الفيض .

وما اندماج المدنية في نظـــام الكون ، إلا للتأثير في سير حوادثه . وينفي الأرسوزي الثنائية ، بين المصلحة والواجب .

هذه هي اخلاق الارسوزي (١٨٩٩ - ١٩٦٨) ، وهي جـــزء من فلسفته ، لكنني سأبحث مدى تأثره فيها بالفلسفة المعاصرة ، ولا سيا بالفيلسوفين الفرنسيين جان ماري جويو (١٨٥٤ - ١٨٨٧) وهنري برجسون (١٨٥٩ - ١٩٤٠) .

يتأثر الارسوزي ببرجسون في تصوره مستويين اخلاقيـــين : اجتماعي ومثالي .

وارتقاء النفس الى العدل ، عند الارسوزي ، مرحلة نحو اخلاق جويو المنزهة عن الإلزام والجزاء . فاول درجة من درجات ارتقاء النفس ، عند الارسوزي ، هي ارتقاؤها « الى العدل ذي العلاقة ببنيان المجتمع » [١] ، وهكذا تصبح النفس على عتبة مغادرة الاخلاق الاجتماعية الى الاخلاق المثالية التي سوف ينقلنا اليها الارسوزي ، والتي كان يبحث عنها جويو اذ تساءل : « الى اي حد يمكن للشعور الواعي أن يحس أنه مرتبط باندفاع داخلي ، بضغط داخلي لا يتصف ، فرضاً ، إلا بصفة طبيعية لاغيبية ولا ميتافيزيائية ، ولا يصحب ، عدا ذلك ، بتوقع أي جزاء فوق الجزاء الاجتماعي ؟ إلى أي حد يجب على الشعور الواعي أن يخضع خضوعاً عقلياً لواجب من هذا النوع ؟ » [٢] .

---

(١) زكي الارسوزي - رسالتا الفلسفة والاخلاق - منشورات دار اليقظة العربية بدمشق ١٩٥٤ ص ٦٢

(٢) ج . م . جويو - الاخلاق بلا الزام ولا جزاء - ترجمة سامي الدروبي - منشورات دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٤٦ ص ١٣٥

وتنمي النفس ، عند الأرسوزي « بالفضيلة عدانٌ الحياة فتتخطى بهذا النمو حدود مصيرها » [1] « وقد بنت الحياة العدّان من تصالب الزمان مع المكان » [2] . فالفضيلة تزيد النفس حيوية .

ويرجع الأرسوزي « الاختلاف على فهم الفضيلة بين العرب والشعوب الهندية الاوربية إلى تطور الصورة الذهنية نحو أحد قطبيها : الطبيعة أو الملأ ، الشيء أو الحدس » [3] .

فالفكر الغربي متعلق بالطبيعة ، بينما الفكر العربي متجه نحو المعنى الكامن في النفس .

والفضيلة البريئة من الخوف ، عند الارسوزي ، هي التضحية الناجمة عن غنى الحياة ، عند جويو .

ويقبل الارسوزي – على مايبدو – تمييز برجسون بين الميل « والطريقة العقلية التي يتذرع بها الكائن العاقل » [4] لتبرير الميل

ويتأثر الأرسوزي بالواجب البرجسوني ، الذي يؤديه الانسان بدافع الدفقة الحيوية ، تبعاً لتأثره به في تصور مستويين أخلاقيين . فكما يقف المرء مواقف مختلفة من الواجب – في رأي برجسون – يتراوح الواجب ، عند الأرسوزي « بين الآية والعادة ، فإن تسمو به النفس الى الآية بحيث يصبح

---

(١) رسالتا الفلسفة والاخلاق ص ٦٨

(٢) رسالتا الفلسفة والاخلاق ص ٧٠

(٣) رسالتا الفلسفة والاخلاق ص ٧٤

(٤) هنري برجسون – منبعا الأخلاق والدين – ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم – مكتبة نهضة مصر – القاهرة – الطبعة الأولى ١٩٤٥ ص ٣١ .

المرء رباً فهي تنحدر بالتقوى نحو العبودية . وإذن يصبح الانسان كمن يقتات في المنام »[1] . ولا يعمد الأرسوزي الى التعريف ، بقدر ما يعمد الى التشبيه ، وضرب الأمثال . فمثل النفس في وقوعها بين الآية والعادة « كمثل الطلع الذي جذوره في الأرض وزهوته في اتجاه الشمس »[2] . فالآية أشبه بالمثل الأفلاطونية ، تستمد النفس منها لتمارسها فتصبح عادة . وليس ثمة انفصال مكاني بين النفس والآية ، فالآية موجودة في النفس . فاذا فقهت النفس المعنى الكامن فيها ، أصبح الانسان رباً . والرب في اللغة هو السيد ، ومما يرجح هذا المعنى انحدار النفس بالتقوى نحو العبودية . فالعبد هو الرق ، والرب هو سيد الرق . ولكن كلمة (رب) عند الأرسوزي فيها شيء من الألوهية ، بدليل استشهاده بقول المسيح : « أنا قلت إنكم آلهة »[3] . ولكن الانسان لاينقلب عند الأرسوزي – ولا عند المسيح – الى إله . بل هو نوع من التصوف ، تكون فيه العلاقة بين الانسان والإله علاقة رحمانية . فالواجب الأخلاقي الذي يبحث عنه الأرسوزي ، واجب صوفي . واجب أفلاطوني شعاره (من يعرف الخير ، يعمل به) . واجب برجسوني ، يؤديه الانسان بدافع الدفقة الحيوية . وواجب يؤديه الانسان بلا إلزام ولا جزاء على طريقة جويو الذي يستشهد بقول جوانفيل : « رأى إيف ، الراهب الواعظ ، ذات يوم ، عجوزاً في الشام تحمل في يمناها شعلة من النار ، وتحمل في اليسرى قربة مملوءة ماء . فسألها إيف عما تريد أن تفعل بهذا ، فأجابت انها تريد من النار أن تحرق بها الجنة ، وتريد من الماء أن تطفىء به جهنم . فلما

(١) رسالتنا الفلسفة والأخلاق ص ٧٢ .

(٢) رسالتنا الفلسفة والأخلاق ص ١٩ .

(٣) رسالتنا الفلسفة والأخلاق ص ٥٧ .

سألها لماذا ؟ أجابت : لأنني لا أريد لأحد أن يعمل صالحاً طمعاً في ثواب الجنة أو خوفاً من عقاب النار ، بل حباً بالله فحسب »[1] . هذا الواجب الذي يدل على على غنى النفس ، يسميه الأرسوزي فضيلة ، من الفضل أي الزيادة . ويرى جويو ميل الانسان الى ادخار الحياة ، فهو يضحي بما يزيد عن حاجته . وعندما تنقلب الفضيلة الى تقوى – أي خوف – يخضع الانسان للعبودية وينتقل من الآية الى العادة .

ألا تحتاج الشيوعية الى رياضة من هذا القبيل ؟

ما الذي يمنع الشيوعي من التذمر ، إذ يعمل اكثر من غيره وينال أقل منه ؟

تطبق الشيوعية في مرحلتها الأولى (الاشتراكية) ، العدل في المستوى الاجتماعي للأخلاق . ولكن ماركس يرفض اعطاء العامل نتيجة عمله – كما كان يحلم بذلك لاسال – بل يعطيه بنسبة عمله . فيأخذ من أجر العامل نصيباً للاحتياطي ، وتنمية الانتاج ، وتبديل الآلات المستهلكة ، والخدمات الادارية ، والمدارس ، والمشافي ، ومآوي العجزة ... »[2] .

فيمكن تلخيص الواجب الاشتراكي على النحو التالي : « من لا يعمل ، لا يأكل[3] » .

ولكن هذا الواجب لا يقع على عاتق الأطفال ، الذين يمثلون قدرة كامنة تنتج في المستقبل بقدر ما نرعاها . ولو طبق هذا الأمر على العجزة ، سواء كان

(١) الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .

(٢) V. Lénine — Sur la base matérille et technique du Communisme — Editions de l'Agence de Presse Novosti Moscou 1969 p . 7

(٣) ibid - p - 22 .

لهم انتاج سابق أم لم يكن ، لتحولت الماركسية الى نيتشوية تحض على قتل الضعيف ولما كان الأفراد مختلفين - هذا أقوى من ذاك ، وهذا عزب وذاك متزوج ، وهذا بلا ذرية وذاك كثير العيال - فقد حاسب ماركس كل فرد حسب طاقته ، ليعطيه حسب حاجته في المرحلة العليا من المجتمع الشيوعي ، مؤكداً ضرورة المرحلة الأولى (الاشتراكية) ، على خلاف الشيوعيين الطوباثيين ، من أفلاطون والفارابي اللذين حاولا إقامة جمهورية أو مدينة فاضلة دون التمهيد للشيوعية بمراحل تاريخية ، الى برودون الذي قال فيه غورفيتش : « ان فلسفة برودون وفلسفة ماركس تكمل وتصلح إحداهما الأخرى ولا تتعارضان »[1] .

كانت شيوعية برودون نابعة من زهده ، بينما شيوعية ماركس نتيجة إيمانه بحتمية التاريخ .

ويضع لينين برنامج المرحلة الشيوعية العليا : « يحصل كل امرىء على القوت ، وينتعل حذاء متيناً ، ويرتدي ملابس حسنة ، ويأوي الى مسكن دافيء ، ويعمل عملاً واعياً ولا يتجول نصاب (أو كسول) بحرية ، بل يستقر في السجن أو ينال عقاباً شديداً بالأشغال الشاقة[2] » .

وكان لا بد من هذا الايضاح كيلا يعتقد امرؤ بقدرة كل فرد « على الحصول على ما يشاء من الكمأة والسيارات وآلات البيانو ، دون أن يراقبه أحد في عمله[3] » . وليس المهم تحديد حاجة الفرد من الخبز الى البيانو ، بقدر ما يعنينا هذا (الانضباط) الذي يهدف إلى تعويد الفرد على العمل من تلقاء

---

(١) برودون - مؤلفات مختارة جمع وترتيب جان بنكال ترجمة الدكتور عمر شخاشيرو منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦٩ ص ٤٠ .

Proudhon - Oeuvres Choisies - Textes Présentés par Jean Bancal Gallimard - 1967 .

(٢) Sur la base matérielle et technique du Communisme p - 22

(٣) ibid p. 12

نفسه وعلى الاكتفاء بنيل حاجته . ويتوقع لينين « زوال الدولة زوالاً تاماً عندما يستطيع المجتمع تحقيق مبدأ (من كل حسب طاقته إلى كل حسب حاجته) ، أي عندما يتعود الناس تعوداً تاماً على احترام القواعد الأساسية للحياة في المجتمع، وعندما يصل عملهم إلى حد من الانتاج يعملون فيه بملء إرادتهم حسب طاقتهم»[1] وهكذا يصرف الانسان طاقته الفائضة، دون محاسبته على قلة طاقته لحرمانه من نيل حاجته. يفقه قادة الماركسيين - الذين يتحرون من النبع - معنى الماركسية، ويترجمونها إلى إجراء اجتماعي ينفذه العامة انضباطياً حتى تصبح الممارسة عادة . ولكن انتشار الأتمتة ، واكتفاء كل إنسان بما يمسك عليه رمقه ، سيؤدي إلى انصراف الناس إلى الثقافة بعد انخفاض ساعات عملهم . وعندئذ لا يبقى العمل عادة أو وسيلة للحياة ، بل يشعر الانسان بحاجته إلى صرف طاقته في العمل ، كما يشعر باللذة في صرف عواطفه الفائضة . ولا يأخذ أكثر مما يحتـــاج إليه ، فحاجته موفورة ، ولا ضرورة للادخار أو التبذير .

ومما شجعني على المقايسة بين الأخلاق الصوفية والأخلاق الماركسية ، هــذا الاثر الذي تركه برودون « في المذهب الكاثوليكي الاجتماعي من خلال (بيغي) الذي يصرح قائلاً : (إني من أنصار سياسة برودون) ومن خلال (مونيه) الذي يلجأ إلى برودون في مفهومه عن الماركسية المفتوحة والمذهب الشخصاني الاجتماعي . ومن الطريف أن نشاهد أن القائمين الرئيسيين على انفتاح الكنيسة الكاثوليكية الحالي (أمثال هـ . دولوباك و ب . هوبان) وأن فلاسفة مسيحيين (أمثال جان لاكروا) هم من كبار شراح برودون »[2] . فقد كان

---

(١) ibid pp . 11 , 12

(٢) برودون ص ٣٨

برودون ، كأبي ذر الغفـــاري ، يطل على الماركسية بشيوعيته وعلى المتصوفة بزهده . وليسمح لي القارىء باعتبار الحوار القائم في أوروبا الغربية بين الكاثوليك والماركسيين ، حواراً بين الصوفية والماركسية ، فأنا لا آخذ التصوف هنا بمعناه الضيق - وحدة وجود أو حلول - بل بما في الكثلكة من قيم روحية . وقد أوضح مونتارون[١]، زعيم حركة الشهادة المسيحية، كيف بدأ حواراً فلسفياً مع جارودي لتحديد ملامح الانسان الجديد وإنشاء اشتراكية إنسانية . واتفق الطرفان على محاربة التعصب لدى المسيحيين والماركسيين . وأوضح أصحـــاب (الشهادة المسيحية) - الذين يختلفون عن الماركسيين في إيمانهم بالله بينما يؤمن الماركسيون بالمادية والحتمية التاريخية - كيف يعتبرون الماركسية أداة لدراسة المجتمعات والمناهج الاقتصادية .

فاذا قبل المثقفون الكاثوليك الماركسية أداة لدراسة المجتمعات ، فلا غرابة في ملاحظة الشبه بين أداء الفرد لواجبه في المجتمع الشيوعي بملء إرادته ، والفضيلة عند الارسوزي . ولكن الارسوزي يأخذ على الذهن الحديث اتباعه « منهج التحليل في الشؤون الإنسانية »[٢] ، فالتحليل من شأن العلم أما الأخلاق فرائدها الحدس ، وهذا ما أوضحه برجسون . ويؤكد الأرسوزي تحمل الساميين بوجب المعـاني ، بينما يبحث الغربيون الشؤون الاخلاقية بنفس المنهج العلمي الذي يتبعونه « في دراسة الطبيعة »[٣] . وإذا كانت معرفة الوقائع لا تضير

---

(١) في لقاء مع نخبة من المثقفين العرب في مقر اتحاد الكتاب العرب بدمشق في ٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٦ .

(٢) رسالتا الفلسفة والاخلاق ص ٧٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٤ .

الاندفاع نحو المثل الأعلى عند جويو ، فالشعوب الحديثة ـ عند الارسوزي ـ تستطيع أن تعوض «بالعلم والصناعة»[1] عن الأصالة في الأخلاق وكأنه يشير بذلك إلى الأخلاق الماركسية . يقول لينين : « من مهماتنا الأساسية زيادة إنتاجية العمل ، فلا يمكن تصور الانتقال إلى الشيوعية النهائيـــة دونها . فينبغي - بالاضافة إلى الدأب في تعليم الجماهير ورفع مستواها الثقافي - الاستفادة مباشرة وعلى أوسع نطاق من الأخصائيين في العلم والتقنية الذين خلفتهم لنا الرأسمالية ، وتغذوا طبعاً بالمفاهيم والعادات البرجوازية »[2] . فالماركسية تعتمد على العلم والصناعة في بناء أخلاق جديدة يؤدي فيها الانسان واجبه دون إلزام أو جزاء ، بعد ماتوفر له الأتمتة غنى مادياً يناظر الغنى الحيوي عند جويو .

العادة عند لينين ـ عادة احترام القواعد الأساسية للحياة في المجتمع - تناظر العادة عند الأرسوزي ، والعادة الأخلاقية عنـــد برجسون ، والغريزة الأخلاقية عند جويو . يرى برجسون قدرة العقل على إنشاء عادات أخلاقية تحل محل الغريزة[3] . وهنا نجد ممارسة الفضيلة تتحول إلى عادة أخلاقية في المجتمع الشيوعي البشري ، شبيهة بأداء النمل لواجبه بدافع غريزي في مجتمعه الشيوعي . ويتساءل جويو : لمـــاذا لا ترتوي الغريزة الأخلاقية شأن الغرائز الأخرى ؟[4] .

إن هذا ما يحدو بالأرسوزي الى استبعاد الغريزة الأخلاقيـة من زمرة الغرائز ، ليضعها في زمرة العادات . وكيف ترتوي العادة إذا كانت النية تتجه

---

(١) المرجع السابق ص ٧٦ .

(٢) Sur la base materielle et techniqne du Communisme p . 37

(٣) منبعا الأخلاق والدين ص ٣٥

(٤) الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء ص ١١٧

الى العادة اتجاهاً تدمج معه العادة في أخلاق صاحبها فتصبح جزءاً منه ؟ ويضيف الارسوزي : « النوايا المرتسمة سماتها على المحيا لا تكشف عن صبوة صاحبها فحسب بل إنها لتشترك في تعيين مصيره ، مثلها كمثل الموج الذي تدل على شكله آثاره المحفورة في صخور الشط . وإن العادات المطبوعة في البنية لتدعو بمجاريها معناها إلى العودة وكلمة عادة نفسها تعني بحسب اشتقاقها النزعة الى العودة »(١).

ويتأثر الأرسوزي ببرجسون الذي يرى المحبة باقية في نفس المحب ولو لم يبق على وجه الأرض حي غيره ، وبجويو الذي يرى المرء اثانياً في عهد الطفولة ، عهد الادخار ، ويتلىء وهو فتى حماسة ، واذا به مستعد للقيام بأعظم التضحيات ، فقد طفح ، ولا بد له من التضحية بشيء من ذاته حتى يخفف العبء عن نفسه : لا يحيا حياته لنفسه وحسب ، لقد اصبحت أوسع من ذلك . وتحقق النفس ، عند الأرسوزي ، صبوتها نحو الحقيقة الانسانية المثلى ، باستنادها الى أمنيتها المستفاضة في الوجدان كصورة تمثلها في صعودها نحو الملأ الأعلى »(٢) . فالنفس تنفتح للمثل الأعلى ، وينصرف الفيض في التضحية ، وتهتدي النفس الى المثل الأعلى بصورته المطبوعة فيها .

يرى برجسون غدر الانسان بالطبيعة حين امتنع عن الحصاد دون التنازل عن لذة الزرع ، وتجاوز « التعاون الاجتماعي الى أخوة انسانية »(٣) . وكأن الأرسوزي يخالفه حين يرى المدنية « تندمج في نظام الكون »(٤) ، ولكننا

---

(١) رسالتا الفلسفة والأخلاق ص ٦٣ – ٦٤

(٢) المرجع السابق ص ٦٦

(٣) منبعا الأخلاق والدين ص ٦١

(٤) رسالتا الفلسفة والأخلاق ص ٧٦

نكتشف اتفاقه مع برجسون إذ يفسر اندماج المدنية في نظام الكون للتأثير في سير حوادثه ». وهذا مانجده في المادية التاريخية ، التي أكدت دور الانسان في تغيير الطبيعة .

وكما يسفه جويو وبرجسون الالزام ، ولا سيا إذا صدف الانسان عن الغاية التي وجد الإلزام من أجلها، ينفي الأرسوزي الثنائية بين المصلحة والواجب، فلا حاجة الإلزام اذا كان من مصلحتنا أداء الواجب .

* * *

قرأ الأرسوزي (جويو) و (برجسون) وغيرهما ، ولكن تأثره بهما قد لا يكون أكثر من تأثر برودون بأبي ذر الغفاري .

* * *

رد الغزالي باسم الاسلام على الفلاسفة المسلمين الذين ترجموا الفلسفة الإغريقية ، فأنشأ فلسفة إسلامية سبق فيها ديكارت الى الشك المنهجي وهيوم الى نفي السببية [1] .

واستهجن الأرسوزي تمييز الفلسفة الإغريقية بين الحكمة ومحبها ، بين الموضوع والذات ، وغاص في (فقه المعنى) لتفقه النفس معناها دون ثنائية . فأنشأ فلسفة وأخلاقاً عربية .

وإذا كان الغزالي لم يسعد بمن يتابع فلسفته ، فهل ينهض من تلامذة الأرسوزي من يفقه معنى أخلاقه وسط الفلسفات والمشاكل الأخلاقية المعاصرة

---

(١) المنقذ من الضلال لحجة الاسلام الغزالي ، منشورات مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٢ .

ليساهم في بناء الانسان العربي الذي يستطيع مواجهة تحدي الحضارة والعدوان ؟

هل يستطيع الانسان العربي أن يختار الوجه الحضاري للمدنية ، دون وجهها الاستعماري ؟

هـــذا التهديد بالفناء الذي يتعرض له الجنس العربي ، هل يستجيب له الانسان العربي فيضحي بنفسه معتبراً فناءه فناء جنس انتهى دوره التاريخي وعليه إفساح المجال للتقدم العلمي ؟ هل يقل التطور التقني – حين يفقد انسانيته – همجية عن غيره من الغزوات التي اطاحت بالحضارة العربية؟ أعلى الانسان العربي الصمود في وجه هذا التحدي ، لمصلحة الانسانية ؟

زكي الأرسوزي

واللغة العربية

عبد الحميد الحسن

صدر المرحوم زكي الأرسوزي بعـــد وفاته مقـال في نشرة « اللسان العربي » التي يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعليم في العالم العربي التابع لجامعة الدول العربية ـ الرباط . عنوان المقال : « العربية تحمل في ذاتها نزعة إنسانية هي إسهام العرب في حضارة العــالم » يثبت فيه أنه كان حتى آخر رمق يجاهد لإثبـات عبقرية العرب وتوضيح رسالتهم إلى العالم يقول فيه :

احد المؤرخين الفرنسيين (أرنست دين) يقول في حديثه عن الوحدة الالمانية ان مصير اللغة يتبع المصير السياسي لمتكلميها ويضرب لنا مثلا بتناوب الناس في الاقبال على اللغة الالمانية او اللغة الفرنسية تبعا لمركز كل من المانيا وفرنسا السياسي في العالم . وللعرب تجاربهم من هذا القبيل ، فلما بلغ المد العربي في غضون القرون الوسطى سهول فرنسا ، اصبحت ثقافة العرب منهل الشعوب الاوروبية ، واليك بعضا مما ورد في هذا الشأن على لسان احد ادباء ذلك العصر :

« يطرب اخواني المسيحيون لاشعار العرب وقصصهم ، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين ، لا لتنفيذها بل للحصول على اسلوب عربي صحيح رشيق . ان الشباب المسيحيين الذين هم من ابرز الناس مواهب ليسوا على علم من أي أدب ولا أية لغة غير العربية ، فهم يقرأون كتب العربية ويدرسونها بلهفة وشغف ، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة ، وهم يتزغون في كل مكان بمدح تراث العرب . لقد نسي المسيحيون لغتهم ولا يكاد يوجد منهم واحد في الالف قادر على انشاء رسالة الى صديق بلاتينية مستقيمة، ولكن اذا استدعى الامر كتابة العربية فكم منهم من يستطيع ان يعبر عن نفسه في تلك اللغة باعظم ما يكون من الرشاقة . بل لقد يقرضون من الشعر ما يفوق في صحة نظمه شعر العرب انفسهم - الفارو » .

ولكن لما كرت اوروبا على العرب واحتلت فرنسا لبنان ارتفع صوت مماثل لصوت الفارو في الشكوى ، غير ان الشكوى في هذه المرة كانت من مدرس اللغة العربية على اهمال الناس لغة اجدادهم من اجـــل لغة الفاتحين (اللغة الفرنسية) .

واذا كان مصير اللغة يتبع مصير متكلميها افلا تختلف اللغات بعضها عن بعض من حيث المقدرة على البيان وتشخيص المعنى ونقله حيا الى الاذهان ؟ في مجال المفاضلة بين لغة واخرى كمجموعة من الادوات ، يقول المفكر الالماني هوستون شامبرلين : لو بقي « كانت » على لغة اجداده الانجليز ما كان بلغ ما بلغ من شأو في الفلسفة ، وهو يستعمل اللغة الالمانية . واذا كانت شعوب أوروبا قد اتخذت اللغة اللاتينية لغة اساسية في تعليم الناشئة ، فان الاختيار لم يكن

بتأثير الذكريات التاريخية (ذكريات روما القديمة) بل لان اللاتينية اصلح من لغات هذه الشعوب لايضاح المفاهيم الانسانية .

وأما مقدرة اللسان العربي على البيان فقد استرعت انتباه كل من اولى عنايته دراسة لغة الضاد واليك بعضا من مأثور القول في هذا الشأن :

« فأما مانحن بصدده من ذكر اللغة العربية فلا نزاع في ميزتها على سائر اللغات وفضلها ، اما السعة فالامرفيها واضح ومن تتبع فيها جميع اللغات لم يجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية في كثرة الاسماء للمسمى الواحد ، على ان اللغة الرومية بالضد فان الاسم الواحد يوجد فيها للمسميات المختلفة كثيرا ، (سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي) يضاف جمال الصوت الى ثروتها المدهشة في المترادفات (المزهر في علوم اللغة للسيوطي) نعم ان المعاني يمكن ان يعبر عنها باللغات الاجنبية ، ولكن العربية تستطيع ان تنقلها بدقة اكثر وايجاز اتم » . (المزهر) وتمتاز العربية بما ليس له ضرب من اليسر في استعمال المجاز ، وان ما بها من كنايات ومجازات واستعارات ليرفعها كثيرا فوق أية لغة بشرية اخرى . ومثل هذا الحال يجعل الترجمة المرضية من العربيه واليها امرا مستحيلا . وهي مع هذه السعة والكثرة اخصر اللغات في ايصال المعاني ، وفي النقل اليها يبين ذلك ان الصورة العربية لاي مثل هي اقصر في جميع الحالات فليس كلام ينقل الى لغة العرب الا ويجيء الثاني اوجز من الاول مع سلامة المعاني وبقائها على حالها .

ولقد ادهشت اللغة العربية بقدرتها على البيان . يقول ابو داود المطران ، وهو عارف باللغتين العربية والسريانية ، انه اذا نقل الالفاظ الحسنة الى السرياني قبحت وخست ، واذا نقل الكلام المختار من السرياني الى العربي ازداد طلاوة

وحسنا . ويقول الفارابي بصدد البيان في لغة الضاد . «هذا اللسان كلام اهل الجنة وهو المنزه من بين الالسنة من كل نقيصـــة والمعلى من كل خسيسة والمهذب مما يستهجن او يستبشع ، وفضلا عن ذلك فان فصاحة العرب الفطرية عجيبة » .

ومع ما عليه مركز العرب السياسي اليوم من وهن فان الاستاذ هنري دوبانسيه يكتب في جريدة (لوموند) عن رسالة اللغة العربية نحـو الثقافة الانسانية :

« ان اللغة العربية التي نبتت في الصحراء ، حيث يشخص النظر في كل ليلة نحو السماء المتلألئة بالنجوم ، ان تلك اللغة بمحتواها الانساني والالهي ، توجه الذهن نحو السمو ، نحو المثل الاعلى ، نحو المطلق . والى هذا فان اللغة العربية تحمل في ذاتها نزعة انسانية كانت نزعة المسيح والتي لا تستطيع لغاتنا البربرية البتة ان تعبر عنهـا بوجه من الوجوه وهي تشكل اسهام العرب في حضارة العالم . وهذه اللغة هي كنز العرب .

ونحن الاحفاد ، يحق لنا أن نضيف رأينا في مزايا اللسان العربي الى آراء السابقين في هذا المضمار ولا سيما اذا كان هذا الرأي يفسر لنا سر تفوق هذا اللسان على غيره من اللغات . فنحن نرى أن اللسان العربي أقوى من اللغات الأخرى في توضيح المفهومات الانسانية . ومزية اللسان العربي هذه ترجع الى الخيال المرن المتضمن في الكلمة والخيال المرن أو الصورة هذه تبرز من ثنايا البنية الاشتقاقية للكلمة العربية كظهور صورة الاشراق في معنى كلمة « ذكاء » المتضمنة صورة ذكاء الشمس . ولقد مثلت ذات مرة الكلمة العربية بين شقائقهـــا في الأسرة بمصباح في ثريا يزداد معناها تألقاً بتجاوبه مع معاني شقائقه في الأسرة . كما مثلتها

مرة أخرى بنغمة في أنشودة من حيث أثارتها للانفعالات العميقة في تشخيص المعنى وتحقيقه .[1]

لقد كتب المرحوم الأرسوزي في التاريخ واللغة والفلسفة والفن ، وكانت كتاباته كلها تدور حول قطب واحد لايتغير ، العروبة . كتب عن أصلها ومعناها وتفردها ورسالتها .. وكانت كتاباته من اللغة العربية تهدف إلى شيء واحد هو إثبات « العبقرية العربية في لسانها » ، وهذا عنوان كتابه الأساسي في هذا الموضوع .

فهو إذن كان يكتب لغاية ، ليثبت مبدأ بعينه . و كتاباته لاتفهم إلا بفهم هذه الغاية . فان وُجدت فيها موضوعات تتكرر ، فهي تتكرر لاثبات نقطة ما كلما احتاج الأمر ذلك ، وإن كان فيها بعض ماسبقه إليه غيره من اللغويين فهو لم يقل إنّ كل شيء فيها من عنده ، ولم يكن بحاجة إلى هذا . حسبه أنه أوصل أبحاث سابقيه إلى نتائج لم تخطر لهم ، ولو خطرت لكانوا ضدها . لقد كانوا يضعون قواعد اللغة ويؤلفون المعاجم ويرجعون الكلمات إلى أصولها بهدف تسهيل دراستها فقط . خصوصاً وأن أكثرها « هجين » دخيل على العروبة ، إن أفاد بناحية فقد أضر بنواح كثيرة . وله فيهم وفي المؤرخين وغيرهم آراء أخرى لاتسرهم وليس هنا مجال تفصيلها .

ونحن هنا نلخص آراءه في اللغة العربية ، وأكثرها مبسوط في كتابيه : « العبقرية العربية في لسانها » و « اللسان العربي » . والباقي في رسائل ومقالات وأحاديث عديدة .

---

(١) « العربية تحمل في ذاتها نزعة انسانية ... » . نشرة « اللسان العربي » الجزء الأول يناير ١٩٧٠ – المكتب الدائم لتنسيق التعليم في العالم العربي – الرباط .

الوضع البالي :

« أصبح مثلنا ، نحن العرب ، كمثل أهل الكهف عندما استيقظنا من سباتنا ، سبات انزوت فيه أجيالنا عن سير التاريخ عصوراً مديدة ، وبدت مظاهر حياتنا بالية ، عرفنا وتقاليدنا ، مؤسساتنا الاجتماعية والاقتصادية ، حتى قوالب فكرنا وعملنا ؛ وكأن تراثنا فوقعة تصدعت وتداعت لدى اصطدامها المفاجيء بموجة المدنية الحديثة .

في مطلع القرون الوسطى ، حين فاضت الأمة العربية بأبنائها طوائفَ تبريء الشعوب من آثامها ، كفيض البحيرة على أطرافها ، اعتلت الشعوب ه الفيض اعتلاءَ الحشرات الضامرة على الموج ، فسكبت في الينبوع سمومها حتى أفسدت مبعث انتعاشها .. لقد غشي الأغيار حقيقتنا كما يغشى البرغش الزهر المتفتح على طلعة الشمس ، فأصبح مثلنا ، كمثل حيوانات نسجت حولها الحشرات فوقعة من الافرازات لتجعل من جثمانها فريسة يتطفل عليها أصفادها ، ولم يقف الأعاجم عند إزاحة مجتمعنا عن حقيقته ولا عند إخراج العربي عن محور شخصيته . » .. فقد نفذوا إلى صميم أصالتنا . فبالمجانة أفسدوها . وبالانتخاب المتدني استنزلوها إلى أن غارت في بنيتنا قواعد خصائلنا الكريمة » .

« وفي جو كهذا تنفرضُ على الوجدان قواعد الفكر والعمل . فيبدو على مناحي الحياة الهرم كرهبة من الابداع ، ونفرة من الطبيعة ، وإعراض عن المحسوس ، واسترسال في الأحلام .. فتحولت شؤون الحياة إلى تقليد وذكرى » « أصبح العرب على هذه المرحلة التاريخية .. يجماون تقاليد القرون الوسطى ؛ ويحملونها باليةً ، أعرض فيها الانسان عن الحياة في ينبوعيها : الطبيعة والانسانية فانتهى الأمر بذلك إلى الدروشة في العمل ، والسفسطة في المعرفة » .

« لقد استيقظ أبناء هذا الجيل . يقظة رافقتها احتلال الأجنبي لبلادنا ، كانت (الدول المحتلة) تزعم بأنها تحمل إلينا منارة الحضارة ، وإذا بها تضلنا عن أصول العلم ، وتقصينا عن منهل الثقافة » . لقد شهرت الدول المنتدبة بأولئك الذين تمثلت فيهم قيم الماضي البالية . فقد أغوت رجال الدين والوجهاء، واصطنعت الزعماء ، ثم فضحت هوياتهم المزيفة . ولكنها كانت تبتغي من عرض الزعماء عراة من أقنعتهم ، فطم الجمهور عن السياسية ، فخابت ، وعجلت سياستها هذه بانهيار الرداء البالي عن بيئتنا .

* * *

البعث القومي :

بدأ البعث القومي في أوربا ببعث تراث الأجداد ، التراث الذي نسجته الحياة سليقة ، دون تدخل الأغيار . وكانت الشعوب الأوربية اعتنقت المسيحية في القرون الوسطى وظلت تخضع لقوانين الكنيسة حتى مطلع القرن التاسع عشر . إذ ذاك كان فريق شعوب غربي أوربا يُفصح أعلامه عن رأيهم باللغة اللاتينية .. وفريق شرقي أوربا باللغة اليونانية . أما لغات الأم فكانت مهملة . وذلك كان السبب في بقاء سواد الشعب مقصراً عن المستوى الذي تتطلبه أفهام العامة .

وإذ ذاك كان تاريخ اليهود المسجل في التوراة ، وقصص الأنبياء ، تعوض عن مناقب الأجداد وأساطيرهم . وكانت أعمال بني إسرائيل مصدر وحي الأدباء والفنانين .

ولكن لما دب الشعور القومي في أرجاء أوربا ، إثر الثورة الفرنسية ، هبت الجماعات تطالب بالاستقلال والحرية .. فقام فيخته في ألمانيا يعيد إلى لغة

الأجداد اعتبارها، مظهراً تفوقها على غيرها . وبهذا حدث تحول في حياة الشعوب المعاصرة ، كان من جرائه أن قامت طليعة الشعوب تحيي لغة الاجداد، فتسجل المفردات في المعاجم، والقواعد في النحو .

لقد وجدت الشعوب المضطهدة في تراثها عاملا مميزاً لها عن أعدائها وحافزاً لإثارة جمهورها ضد خصومها . ولكن حاجتنا ، نحن العرب ، لبينة نتميز بها عن المعتدين على حقوقنا أقل . « إن معالم شخصيتنا القومية أوضح من معالم شخصية خصومنا ، وإن لغتنا لم تقصر عن الافصاح عما يختلج في نفوسنا ، حتى لقد كان تراثنا منارة يهتدي على شفقها الناس سواء السبيل ، وإن كل ما نفتقر اليه في بعثنا هو أن نبلغ مستوى الوعي عند أجدادنا القدامى ، أن نبلغ مستواهم في وضوح البصيرة وفي قوة الشكيمة » .

مزايا لساننا العربي :

إن لغتنا هي أبلغ مظهر لتجلي أمتنا ، وهي مستودع لتراثنا . فيجب ان نعود ونحياها عن وعي . إن مثل كلمات لغتنا كمثل البذرة من النبات ، يضمر فيها المعنى ضمور الحياة في البذرة . فليس للذهن إلا أن يتمثلها ، بالرجوع إلى الحدس المتضمن في الكلمات ، كالعدالة ، والنظام ، والشعر ، والجمال ، ذلك الحدس الذي تدل عليه الكلمات المعبرة عن المحسوس في نفس اسرة الكلمة ، كدلالة العقل « الرباط » على العقل ، ودلالة الشارع على الشريعة . فلغتنا على مثال الشعر، تبعث المعاني حية في النفس ، وتجمع كل من كلماتنا خصائص القصيدة الاساسية وهي المعنى ، والبيان الصوتي والخيال المرئي .

انظر الى الاختلاف بين الفصحى والعامية ، خلود الاولى وخضوع الثانية

لأراجيف البيئة ؛ ألا تبدو الصيغ في اللغة العربية وكأنها وجهات مثالية قد أدركها العقل فاستقر عليها ، إن الكلمة العربية ، من شقائقها الكلمات الاخرى في الاسرة الواحدة ، على مثال النغم بين الانغام في الانظومـــة الواحدة . الكلمات ، المحسوس منها والمعقول ، معانيها منسجمة ، توجه الذهن على موجها نحو الحدس المتضمن في مصدر الاشتقاق ، كما تحمل الانغام المنسجمة النفس على موجها نحو الالهام منبعثا من اعماق الوجدان [١] . فوجهة نظر الامـــة العربية متبلورة حدسا في الكلمة العربية [٢] .

نشأة اللسان العربي :

لدى اقامة المقارنة بين اللغة العربية وبين لغة اخرى كالفرنسية مثلا ، يتبين أن جذور الكلمات الفرنسية في التاريخ ، وجذور الكلمات العربية في الطبيعة . فكل كلمة من الكلمات الفرنسية قد حصلت في ظرف تاريخي معين ، من تحوير احدى كلمات اللغة اللاتينية ، ومن هنا اتى اعتبار اللغة الفرنسية لغة مشتقة لا أصيلة . وما قيل عن الفرنسية ينطبق على اللغة الام ، اللاتينية . اذ أن كلا من كلمات هذه اللغة حصلت بدورها من تحوير كلمات اللغة الهندية الاوربية ، أرومة اللغات المنتشرة من شمالي اوروبا حتى جنوب الهند . واللغة الهندية ــ الاوربية ذاتها ليست بدائية ، تضيع جذور كلماتها في مجاهل التاريخ .

اما اللغة العربية فهي ذات طابع بدائي . ترجع كلماتها جميعاً بالاشتقاق الى صور صوتية ، مرئية مقتبسة مباشرة عن الطبيعة .

---

(١) اللسان العربي ص : ٤٦

(٢) رسالتنا الفلسفة والأخلاق : ص ٤

١ . عن الطبيعة الخارجية ، تقليدا للأصوات الخاصة فيها . مثال ذلك صوت « تر » (وهي الصورة المقتبسة عن سقوط الماء متقطعاً ، حصل الفعل الثلاثي « ترّ » بتشديد الحرف الثاني ، والرباعي « ترتر » بتكرار المقطع ، هذان الفعلان هما الفعلان البدائيان في اللغة العربيـة ، ومن الفعل الثلاثي اشتق الذهن العربي بعض الأفعال بإبدال الشدّة بحرف ملائم المعنى الجديد : تره ، ترك ، ترع ، ترس . واشتق بعضها الآخر بتبديل أحد حرفي الصورة الصوتية البدائية بحرف متقارب الصدور من نفس المخرج . مثل : درّ ، درج ، درس ، ترّ ، ترد ، ترم ، ذرّ ، ذرب ، ذرف . أما عند إبدال حرف الراء فقد حدثت أفعال منها : تلّ ، تلع ، طلع .

لم يقف الذهن العربي عند استعارة الصور الصوتية من الطبيعة الخارجية ، بل استعان ايضاً بالعبارات الصوتية المجهزة بها الطبيعة الانسانية . فمن عبارة «أنّ» أي الأنين الداخلي ، وهي عبارة التوجع ، أنشأ الذهن العربي المشتقات التالية : بإلحاق الهمزة أنشأ «آه» ، وبإلحاق التاء أنشأ أنت وأنتما وباقي الضمائر المشابهة . والأفعال « أنّ » ، وتأوّه ، الأنين ، أنب ، لام ، « انس » ، « أنف » ، وبالإبدال : « عنّ » ، « عنب » ، عند ، عنس ، عنف . عفا .. الخ

٣ – نهج الذهن العربي في تكوين الكلمات البدائية ، بالإضافة الى النهجين الطبيعيين السابقين ، نهجاً إصطلاحياً ؛ فالحرف الأسهل للصدور والأبرز للظهور يستقطب الصورة التي تستدعي الاهتمام ، فيشير إليها بكلمة بالتداعي ، ومن هذا التداعي صنـــع الذهن العربي الأفعال والأسماء فمن حرف الباء صنع « بابا » و « آب » (أب إليه أي إشتاق) و « أبه » أي فطن) والأبهة و أبى (ترفع) . ومن الميم : « ماما » « أم » « أمّ » .. الخ .

وبالإضافة إلى هذه المناهج الأساسية في صنع الكلمات البدائية ومشتقاتها، وجـد الذهن العربي أن بعض الصور الصوتية ترافق حركة عضلات الفم وتستقطب العمل الذي تنجزه هذه الحركة فتعبر عن ذلك بكلمات ذات بنيان مدادي [وهي كلمة تعني في المصطلح الشائع ، ايقاعي]. مثل : عض وقض وبث و بد ، وهي الاصوات التي تحدث من تقاطع اللسان مع قطع الحلق .

أصالة المعنى في الكلمة العربية :

هذه المناهج في صنع الكلمات تدل على أن اللسان العربي بدائي النشأة ، غير مشتق . وأصالته تثبت الأمة التي أنجبته . إن الأمة العربية تضرب جذورها في التاريخ بطول تلك المدة التي استغرقها بانشاء لسانها . وانهـا لمدة طويلة تصل الى اللحظة التي بدأ فيها ذهن الانسان ينفتح على الطبيعة وعلى الملأ الأعلى ، ويشعر بالحاجة الى التعبير عن خلجات نفسه الى الآخرين عما يزيد عن مستوى عبارات الهيجان الطبيعية التي يؤديها الحيوان .

فمعاني الكلمات العربية تمثل تجربة الحياة تمثيلاً مستقلاً عن اجتهاد المجتهدين في اللغات الأخرى . ولقد بدأ تكوين هذه الكلمات تكويناً عفوياً من انبثاق المعنى حدسياً دون طائلة العقل (١) . وهي ما زالت تمتلك القـدرة على استحضار معناها الأصلي ، فما على الذهن إلا أن يستحضرهـا حتى ينبعث من النفس المعنى الذي انشأها ، وهكذا تلتقي الأحفاد مع الأجـداد في تجربة الحياة الأصيلة . وهكذا يتشوه النوابغ صرح الثقافه من الحدس المشترك في الحقيقة بينهم وبين الجمهور . أما الخيال الذي يستجلي هذا الحدس المشترك فشأنه شأن الموسم الذي

---

(١) رسالة اللسان العربي ص ١٠٦

يستجلي كوامن الحياة في بذور النبات . وما يساعد الذهن في استجلاء المعنى من الكلمات العربية هو الرابطة الاشتقاقية بين الكلمات العربية . فالكلمة العربية في الأسرة التي اشتقت منها كالنغم في تضافره مع شقائقه الأنغام في دعوة الإلهام الى البذور في ساحة الوجدان، او هو كالبيت من سائر بيوت القصيدة في إفصاحه عن الإلهام الاول للقصيدة .

وبهذا يبرر الارسوزي إطلاق كلمة « لسان » على اللسان العربي ، « لغة » من « لغا ، يلغو » على باقي اللغات السامية، والعجمة والبربرة على اللغات الأخرى . فاللسان العربي يختلف بالتكوين عن لغات أوربا ، من حيث رجوع خلاياه الى الطبيعة وإلى النفس ، وهذا ينقض الزعم القائل إن العلاقة بين اللسان العربي واللغات السامية الاخرى علاقة أخوة ترجع بأصولها إلى لغة الأم التي هي لغة سامية بائدة . والزعم الآخر الذي قال بوجود لهجات عربية تقلصت أمام طغيان لهجة قريش ، لهجة الديانة والسياسة . لقد قال بهذا الزعم بعض المستشرقين « المضللين » وبعض أبناء الوطن « المغفلين » (وهذه صفتهم عنده بالحرف) ، قالوا به قياساً على أن اللغة الفرنسية هي لهجة منطقة باريس، طبعت مقاطعات فرنسا الأخرى بطابعها. وقالوا به استناداً إلى خطأ شائع بين اللغويين وهو أن العلاقة بين المعنى واللفظ في اللسان العربي على مثال العلاقة بينهما في اللغات الحديثة ، علاقة اصطلاحية ، بمعنى أن اللفظة تشير إلى معناها إشارة فقط فمهمة الكلمة أن ترمز إلى المعنى رمزاً ، وهي توضع بالاتفاق والاصطلاح . بيد أننا رأينا أن اللسان العربي ذو بنيان عضوي تنم فيه الكلمة عن المعنى وتوحي به إيحاءً . إنما هو منظومة صوتية تعبّر عن وجهة الأمة التي أنشأته ودلت عليه

وتجعــــل صاحبها أكثر استعداداً من غيره لفهم أخلاق امته ودياناتها ، بل وقيمها كلها .

المزايا الفلسفية والشعرية والأخلاقية للكلمة العربية :

ومن هنا يفصل الاستاذ الارسوزي في رسالته : « اللسان العربي » ثلاث مزايا للكلمة العربية هي : الفلسفية والاخلاقية والشعرية . ففيما يتعلق بالوجهة الفلسفية للكلمة العربية قال : إن الكلمات المختصة بالشؤون الإنسانية توحي بتجربة الحياة الاولى كما تجلت لاجدادنا عفو الخاطر ، حتى لكأني بلغتنا معجم نظمته الحياة نفسها ، فسجلت فيه تجلياتها . ومن الوجهة الأخلاقية : إن هــذه الكلمات الموضوعة تنزع إلى صيغ هي بمثابة المُثُل ، فتوجه الذهن بنزعتها المثالية هذه إلى إبلاغ كل شيء كمالَهُ ، فهذه النزعة تدعم النفس في ميلها إلى الواجب والإصلاح . أما ميزتها الشعرية فقد فصل القول في البيان الصوتي والبيان في الكلمة العربية في كتابيه « العبقرية العربية في لسانها » و « اللسان العربي » وخلص إلى القول إن المعاني التي توحيها كلماتنا ليست بمجردة فتبقى طافية على سطح الوجدان ، كما تطفو الأوراق المنفصمة عن أغصانها على سطح الماء ، بل إنها مكتسية بحلية من الشعر تجعلها حية ذات جذور في صميم الوجدان . وكأنه يعني أن مسألة الشكل والمضمون في الشعر العربي غير واردة اصلاً ، وهي ترد عندما تكون الكلمة اوعية المعاني فيكمن الغلط في الأوعية ، والتعبير عن غير ما يجيش في النفس . بينما الكلمة العربية هي معناها . وهو يعقد فصلاً كاملا لاثبات ان لا وجود المترادفات في اللغة العربية . وان ما تظنه مترادفات ، له معاني متنوعة غابت عن اذهاننا بتأثير الأعاجم والهجناء والانحطاط . وهذا هو السر

في خلود أمهات الشعر الجاهلي آلاف السنين ، وانقراض الشعر في اللغات الأجنبية بعد عدة مئات من السنين .

. . .

وختاماً ، يجب أن يبقى في الأذهان أن الأرسوزي لم يحاول أن يجعل من العرب أمة خالدة ومن اللغة العربية لغة أصيلة جذورها في الحياة والإنسان، بل حاول أن يثبت هذا منطلقاً من فرضية أن اللغة العربية هي مكمن القيم العربية الخالدة في الأخلاق والفن وهي التي تدل على فلسفة هذه الأمة ، لا التاريخ المزيف الذي كتبه الأعاجم ، ولا أمثلة السوء من الزعماء ورجال الفكر الذين ابتليت بهم الأمة منذ العصر العباسي . إنه يحدد مفهوم الزعامة والبطولة وغيرها من كلماتها ، ويرفض الصور المشوهة التي عرضها الأصفهاني وابن المقفع في أدبه وابن سينا والفارابي وغيرهم ، وإن لم تلق أفكاره من الانتشار والدراسة بما يتناسب مع نبـــل الغاية وأهمية المقصد منها ، فلنفس الأسباب التي جعلت هؤلاء الدخلاء مرتبطين بالعروبة ، وغيرهم من المجناء مسيرين لأمورها مئات السنين .

وهو أخيراً لم يتم عمله هذا في دراسة اللسان العربي ، وما كان الفرد أن يتم مثل هذا العمل الضخم ، ولهذا حدد اتجاه الطريق لإتمام العمل .

فمن حيث اتجاهُ الصوت ، تستلزم دراسة اللسان العربي :

١ – بحث الأصول : وبه ترجع أسر الكلمات بالاشتقاق إلى الأصوات المقتبسة عن الطبيعة .

٢ – بحث البيان : وبه تتعين العلاقة بين الصيغة والمعنى من جهة ،

وبين وظيفة الكلمة وإعرابها من جهة أخرى ، على اعتبار أن الصوت بادرة طبيعية للمعنى .

٣ - بحث الإيقاع : وبه يدرس التصريف والإعلال والإدغام والإبدال .

أما اتجاهُ المعنى فينبغي أن يتناول :

١ - أمر الحدس أو المصمّم الذي تكشف عن وجهاته المختلفة ، الكلمات المشتقة من المصدر ذاته ، سواء أكانت [الوجهات] صوراً حسية أو مفاهيم معنوية .

٢ - أمر تعيين ما كان لتداعي الصور والظروف والتاريخ من تأثير في إيجاد عدد عظيم من مشتقاته .

٣ - أمر الكشف عن مغزى القواعد النحوية ، مغزى تتضح به العقلية العربية ومراميها في الحياة . لقد كان أجدادنا يستعملون اللغة استعمالَ الرجل ليده ، يحركها بالبداهة الطبيعية . أما نحن فمضطرون لدراستها دراسةَ من يدرس تشريح اليد لمعرفة آليتها .

الدولة القومية

في فكر الأرسوزي

د. كمال غالي

١ - «عم يتساءلون؟ عن النبأ العظيم! هكذا أفصحت الآية عما يدور في خلد العرب في عهد ماقبل الرسالة، ويالها من آية تفصح أي إفصاح عما تختلج به نفوسنا، نحن العرب المعاصرين. فمن منا لم يحلم بإقامة دولة تعيدنا الى موكب الحضارة فتجعل شأننا ذا وزن في مصير العالم؟ من منا لم يحلم بإقامة دولة تجمع العرب تحت راية العروبة فتطهر ديارنا من دنس الاغيار؟ ومن منا لم يطمح الى شرف الاسهام في اقامة صرح هذه الدولة»[1]

(١) الجمهورية المثلى، ص ٣

بهذا التساؤل يستهل زكي الارسوزي رسالته « الجمهورية المثلى »[1] ، وفي هذه الجملة ، في رأينا ، مفتاح مفهومه عن الدولة . وسنحاول تحديد أسس هذا المفهوم بالرجوع الى رسالته الرابعة من رسائل « بعث الامة العربية ورسالتها الى العالم » وهي المسماة « الدولة والامة » ، ومؤلفه « الجمهورية المثلى » .

٢ - « المجتمع حدث طبيعي ، واشتقاق كلمة انسان في اللغة العربية من « أنس » إنما يشير الى حقيقة ان الاجتماع اصل في الطبع البشري »[2] ، « المجتمع محل نمو اعضائه ، وهو منهم كالشجرة من البراعم ، اي يستمدون منه نسغ الحياة . والمجتمع على مثال الجسد ، وسطيد الحياة بأسباب النمو والازدهار ، فاذ اكان الجسد يستدرج بنموه الميول الى الظهور في ساحة الشعور ، فان المجتمع بتطوره يستجلي الحدس الذي عليه تقوم انسانية الانسان »[3].

٣ - « والانسان ذو بنيان رحماني مثالي ، من جهة ، وحر في الاقبال على المثل الاعلى او الاعراض عنه من جهة ثانية ، فهو بحكم بنيانه الرحماني ينزع الى الايثار ، وبتعبير أخر ان حقوق الانسان تبدو واجبات منبعثة من نفسه . وهو بحكم بنيانه المثالي ينزع الى ابلاغ كل شيء كماله . ولكن النزعة تظهر في الوجدان صورة ، والصورة تزهو اذا لبتها الارادة ، وتضمر إذا اعرضت عنها ولو رافق الاعراض التأنيب والتقريع (عذاب الوجدان »[4].

٤ - ومن هنا ضرورة « الإمرة والطاعة » اي السلطة السياسية ، في

---

(١) ص ٣
(٢) ص ٤
(٣) ص ٤
(٤) ص ٨ - ٩

المجتمع . « وثمة اسباب اخرى، منها حماية حقوق الجماعة ، تراثها ومجالها الحيوي ، تدعو الى تبلور نزعتي الانسان الى الامرة والطاعة في جهاز معين[1] » . « فبالدولة يستكمل المجتمع شروط مهامه ، كما يستكمل الجسد شروط كيانه بعبقرية ذات تتصرف في مصيرها [2] » . ويتكافل افراد الدولة تكافل اعضاء الجسد ، وتراعي الدولة الصالحة مبدأي تكافؤ الفرص ومبدأ العدالة الاجتماعية [3] » . ويكون شعارها الحرية والاخوة والمساواة . « فالدولة هي نزعة الحق الى إحقاق ذاته عند الناس » [4] ولكن الدولة ليست وليـدة الضرورة الاجتماعية وحسب :

«ولما يبلغ المجتمع مستوى الحرية ، حرية الاشتراك مع العناية في تعيين مصيره ، يعيد النظر في مقومات حياته العامة ، فيبني ، على مسؤوليته ، الوضع السياسي الأقرب للافصاح عن وجهة نظره في الدنيا ، وعندئذ يضاف الى سلطان الحق سلطان العهد - ألا تضارع الحرية الوحي في القدسية ، قدسية نشأتها من فوق سلسلة الحوادث الطبيعية؟ هكذا تقوم الدولة في اعلى مراتبها على إقرار الارادة».

ه - في وسعنا ان نلخص ماسبق في ان المجتمع يبقى - اذا لم توجد السلطة ، مجرد عضو جامد لاحياة فيه عاجز عن تحقيق مبرر وجوده ، وان تنظيم السلطة ، اي تكوين الدولة ، هو الذي ينقل المجتمع من حالة العدم الى الوجود. ومن حقنا الآن ان نتساءل : كيف يتم التمايز السياسي ، او بعبارة اخرى انقسام المجتمع الى حكام يملكون إصدار أوامر يتعين على غيرهم تنفيذها ومحكومين

(١) الجمهورية ، ص ٩
(٢) « ، ص ١٢
(٣) « ، ص ٤٦
(٤) « ، ص ٥٧

يتعين عليهم التنفيذ ، هذا التمايز السياسي الذي يشكل جوهر السلطة السياسية .

وان المجتمع مماثل بالتكوين للجسد ، يتألف من افرادهم اعضاؤه ، وهم وإن كانوا يشتركون في ذات الثقافة ، فان بعضهم يتميز عن بعض في مدى استقطابه معاني هذه الثقافة فتحويلها الى بصائر نيرة »[1] . وبعبارة اخرى «فإن الافراد اعضاء المجتمع يرتبط بعضهم ببعض بروح مشتركة هي معنى الاوضاع العامة ، روح يلمسها العوام (من عمي ، عمه) ويفصح عنها النوابغ»[2] . «فالناس يتفاوتون في الامرة والطاعة بحسب الاختـــلاف فيما بينهم في وضوح الرأي في الشؤون الانسانية وفي تأثير هذا الوضوح على العمل بمقتضاه»[3] . « مثل هؤلاء النوابغ ذوي البصيرة من اخوانهم العوام من حيث التوجيه والارشاد كمثل الحواس من شقائقها الخلايا الأخرى في الجسد»[4] ومن هنا «تحول بصيرة النوابغ في الشؤون العامة الى قواعد (عرف وقوانين) تسلك عليها العامة[5] » .

٦ – هذا التمايز السياسي لا يعني انفصالاً بين الحاكمين والمحكومين . «فمعاني المؤسسات العامة تنبثق من صميم داخلنا، ووسيلة الكشف عن هذه المعاني هي التجربة الرحمانية»[6] . «والتجربة الرحمانية هي انكشاف معنى البيئة الانسانية

---

(١) الجمهورية ص ٥٣

(٢) الجمهورية ص ٤٠ .

(٣) الجمهورية ص ٩ .

(٤) الجمهورية ص ٥٥ .

(٥) الجمهورية ص ٦٦ .

(٦) الجمهورية ص ٥٥ .

منبعثاً من النفس انبعاث مشاعر الأمومة عند الولادة، انبعاثاً يجعل حقوق البعض تبدو واجبات في نفوس الآخرين . ومن هنا تقدم الحق على المصلحة الشخصية ، فهذه غرض تدركه الحواس فتميل اليه بغريزة البقاء ، وذاك واجب يملى من عل على الارادة فيحمل معه هالة رفعته هالة مقدسة ، وهل يعني « المثالي » شيئاً آخر غير تجلي الآيات من الملأ الأعلى على الوجه الأكمل . « ولله المثل الأعلى في السموات والأرض »[1] .

٧ – إلا أن هذا التوافق والتناغم بين الحاكم والمحكوم قد لا يتوافر على الدوام . ذلك وان سلطان الدولة وسيطرة الملك ليسا بالشيء الواحد ، اذ أن الاول يشرق من عل فيكلل من يشرق عليه بهالة من القدسية ، وأما سيطرة الملك فتقوم على ارتباط الناس بحاجاتهم ، بما لهذه الحاجات من تأثير على مصيرهم . وكلمة ملك تدل على ذلك باشتقاقها من الملك . فمن تملك اسباب معيشة الناس أخضعهم عن طريق هذا التملك لمشيئته« (جوهر النظرية الماركسية في الاقتصاد والسياسة) . والصلة اللغوية بين حجة (بمعنى السلطان) والحاجة دليـــل على سهولة الالتباس بين سلطان الحق القـــائم على الحجة ، وسيطرة الملك التي تقوم على الحاجة .

...ورغم هذا الاختلاف في النشأة بين سلطان الحق وسيطرة المصلحة فقد ينمو الوعي عند كل من الامير والرعية حتى يصل الجميع الى ادراك الخير في اقامة مجتمع مبدأه الحرية وشعاره الأخوة . وعندئذ تصبح القوانين ارادة الجمهور الصريحة[2] » . «وإذا كان النوابغ في الشؤون العامة هم ذوو التجارب

---

(١) الجمهورية ص ٥٥ – ٥٦ .

(٢) الجمهورية ص ٥٠ – ٥١ .

الرحمانيـــة المتميزة بوضوح البصيرة وبقوة الشكيمة ، وبتعبير آخر بالنبوة والرسالة ، فان الجمهور من الاصلاح هو الالهام في التحفة الفنية ، محل توافق الآراء وانسجامها ، انه باجماع الرأي تقاس صدق العبارة [١] » . « والزعيم ذو التجربة الرحمانية المثالية من الجمهور كالأم من الطفلة التي تمارس الأمومة طبقاً بالعابها ... انه يهدي بهدايته الى الاماني ، والى هذه الحقيقة يشير حدس العرب في اشتقاقهم كلمتي « أم » و « إمام » من مصدر « أم » ، والى هذا المعنى تشير الآية « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » [٢] .

٨ – « ولكل مرحلة تاريخية طابعها ، وطابع هذه المرحلة القومية . فمن الوجدان القومي يستوحي فيها الناس مثلهم العليا ، وبالاستناد الى المصالح العامة تسن فيها الشرائع وتنظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية » [٣] . فما مفهوم الأمة ؟ «ان كلمتي « أمة » و « أم » ترجعان الى مصدر مشترك هو « أمّ » اي قصد ، والأم في أسرة هذه الكلمات هي صورة الأمة الحسية ... فكما يصدر عن الأم أبناؤها ويتجهون اليها كمثل الحياة ، كذلك الامة في الحدس العربي ، هي مصدر الاخوة في المجتمع ، وهي غاية ما يصبو إليه الاخوة من أمنية ، مثلها كمثل الأم ذاتها »[٤] . «والأمة» حسب حدس العرب» هي الوجدان القومي الذي تصدر عنه المثل العليا ، والذي تقدر بالنسبة اليه قيم الاشياء [٥]» . «والامة العربية عبقرية أبدعت أداة بيانها إبداعاً أفصحت به عن حقيقتها ، فأصبحت بذلك كالقصيدة

---

(١) الجمهورية ص ٥٥ .

(٢) الجمهورية ص ٥٤–٦٤

(٣) الدولة والامة ص ١

(٤) الدولة والامة ، ص ٨ .

(٥) الدولة والامة ص ٩ .

التي يوحي انسجام ألفاظها وجوز الفنان الذي أبدعها . والحدس في الكلمة العربية من صرح الثقافة هو بمثابة البذرة من الشجرة ، والخيال يقوم في استجلاء الحدس مقام البيئة في إنماء البذرة ، مما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الامة ليست كغيرها محصلة ظروف تاريخيـة أو جملة ذكريات وأماني ، بل انها معنى مبدع يبدع تجلياته ويوجهها حسب وجهته في الحياة ، فهي من حيث الظهور على مسرح الانسانية على غرار ظهور الانواع الحياتيـــة في الطبيعة »[1] . وبذلك ينفصل الارسوزي انفصالاً تاماً عن النظرية الفرنسية في الامة وكذلك النظرية الماركسية ليلتقي التقاء وثيقاً مع النظرية الالمانية .

٩ ـ ما العلاقة بين الامة والدولة ؟ «ان الدولة شخصية الامة الواعية[2]» .

«ان الامم تعبر عن وجهة نظرها في الوجود باصطفاء مآثر ابنائها كثروات ، وهل القوانين والعرف والتقاليد الا صور مصطفاة بقصد التعبير عن وجهة النظر هذه ! انها مؤسسات تعبر عن حقيقة الامة في علاقتها مع البيئة كما تعبر الاحياء عن حقيقة الحياة في علاقتها مع الطبيعة[3]» .

«ان الدولة ذات جذور في الملأ الاعلى ، والقول المأثور : السلطان ظل الله على الارض انما يعني النشأة السماوية للدولة . ان الدولة جملة تجارب انسانية تجلت فيها صورة الامة المثلى تجليات تدعو به من تمثلت بهم الى الافصاح عنها مع ما تستلزمه هذه الدعوة من عمل لرفع العثرات في سبيل هذا الافصاح »[4] .

---

(١) الدولة والامة ص ١٦ ـ ١٧ .

(٢) الجمهورية ص ١٤٦ .

(٣) الجمهورية ص ٢٠ .

(٤) الجمهورية ص ٤٨ .

«ان الدولة هي شخص الامة في طور التحقق وظل حقيقتها المثلى ، الامة قائمة في نفوس ابنائها يتلمسها العوام ويفصح عنها النوابغ . بحيث يصبح هؤلاء من اولئك بمثابة الحواس من الجسد ، وبناء على وجهة النظر المتقدمة فان مهمة الدولة وان بدت كحامية لحقيقة الامة ، لمجالها الحيوي ونظام قيمها ، فهي في الاصل إعداد الوسائل التي تؤدي الى تحقيق هويتها ، الى الكشف عن عبقريتها وتأدية رسالتها ، مثل الدولة بذلك كمثل الاحياء ،هؤلاء يبدأ كل منهم بالمحافظة على قاعدة كيانه:الجسد ، ويحاول في نفس الوقت ان يكشف عما انعقدت عليه حياته من امكانيات»[1] .

ويقول أخيراً : «وكما ان الالهام المنبعث من النفس يدعو الفنان الى انشاء الصورة (قصيدة أو أنشودة فنية) يفصح بها عن ذاته ويحققها فكذلك الامة، كمعنى،تدعو ابناءها الى اقامة دولة بها تتحقق . مثل الدولة في تطورها من طور العرف العفوي الى دور الشريعة المتبلورة في مؤسسات حكومية واعية لاغراضها ومراميها كمثل الانسان في انتقاله من السليقة الى الارادة المستنيرة المالكة لزمام الميول والاهواء . . . ان الامة تتجلى في نفوس ابنائها عبقرية تدعوهم الى ايجاد الدولة التي بها تتحقق ، وهم بهذا التحقيق يرتقون الى المثل الاعلى[2]» .

١٠ - «ان الدولة وضع مثالي تكشف عنه نفوس النوابغ انكشافاً يصبح فيه ماهو مشترك بين الناس من ميول اجتماعية ذا حلة أضفتها عليه تجربة الرحمانية ، وذلك ما يجعل من الدولة امنية يصبو اليها الجمهور ، ومن مقامها الأعلى

---

(١) الجمهورية ص ٧٥ .

(٢) الجمهورية ص ١٤٨ .

يتلقى الناس الأوامر ، إنها دعامة للنفوس في صبوتها نحو الصورة التي تتفتح فيها الأمة حقيقة تاريخية ».[1]

«ولكن الدولة الكونية تقصر عن مثلها كما يقصر الانسان عن الأمنية التي يصبو اليها ، وهل يستنفد الواقع المثل الاعلى ؟»[2] «واذا عجزت الامة عن إيجاد صورتها بالدولة او عن تقويم اعوجاجها في حال كونها مزورة استحوذ القلق على أبنائها من العجز او الازورار»[3] .... «وترددت الارادة وتاهت عن قصدها ، واسطورة بابل تدل على تقصير الناس عن التفاهم والتعاون على إدارة الشؤون العامة ، وعندئذ تعصف الأهواء في المجتمع كما تعصف الرمال في البراري التي جف نباتها ».[4]

١١ — « كان العرب فيما مضى سادة العالم ... وكنا اذ ننتشر على وجه الأرض انما كنا نبتغي اعلاء كلمة الحق»[5] . فكيف تحول العرب عما كانوا عليه من سؤدد الى ماهم عليه من خضوع للاغيار تتقاذفهم تيارات السياسة الدولية؟»[6]
« كيف تحول العربي من سيد الى متفرج على مصيره» ؟ [7]

« ان انتشار العرب خارج الجزيرة سبب عودة اخوانهم وبني عمومتهم الملقبين بالشعوب السامية الى حضيرة العروبة ، ناقلين معهم الى مصدر الفيض

---

(١) الجمهورية ص ٤٧
(٢) « ص ١٤٧
(٣) « ص ٤٧
(٤) « ص ١٤٧
(٥) الجمهورية ص ١٠
(٦) « ص ٧٠
(٧) « ص ٧١

الانحرافات التي حصلت لهم من جراء خضوعهم للأغيار ، وكان التحول في أداة بياننا الفصحى الى لهجات عاميـــة خير دليل على ما اعترى مقومات حياتنا من انحراف ، وعلاوة على ذلك فقد وقعت المصاهرة بطريق الاخوة في الدين ، بيننا وبين الاغيار ، فدب الخلل في صميم كياننا. وما ان شاعت الهجانة و كثر الدخلاء حتى اصبح الجو غريباً عن الطبع العربي . وإذ ذاك آوى العرب إلى الريف منزوين عن مجرى التاريخ » .[1]

١٢ - «أما اليوم ، وقد استيقظنا بعد سبات مديد، يقظة أهل الكهف، فكيف نعد العدة لمجابهة العالم؟ كنا ندرك حدساً وجوب إقامة دولة عربية تعيد الينا المجد الغابر ، ولكن كيف السبيل الى ذلك؟ كان الناس في عهد الانحطاط يمنون انفسهم على غرار الاجداد لتحقيق دولة الاسلام في العالم ، وظل الجهـــاد خلال تلك الفترة شعارهم ، ولكن اهمالهم مقومات الحياة جعلت ديار المسلمين مرتعاً لنفوذ الأجانب . وماذا نختلف اليوم عن عهد الانحطاط ؟ نمني النفس بالامبراطورية العربية ونهمل الوسائل المؤدية الى تحقيقها ، نسمع الحديث عن الاماني ونعاني العثرات في سبيلها » .[2]

وحين يبحث عن الحل لا يجده الا في اسلوب إعداد النـاس كمواطنين :

«وصفوة القول ان مهمة الدولة في إعداد اعضائها مواطنين مؤهلين للقيام بالاعباء العامة هي أن تمدهم بما يساعدهم على استجلاء المثل العليا واضحة بينة . ومتى اضحت الغاية دأب المرء على تحقيقها وعندئذ تنمو الحياة وتزدهر . . »[3] لقد اصبحنا

---

(١) الجمهورية ص ٧١

(٢) الجمهورية ص ٧١ - ٧٢

(٣) الجمهورية ص ٤٧

في حلقة مفرغة يصعب كسرها والخروج منها ، فاذا كان حقاً ان مهمة الدولة إعداد اعضائها كمواطنين، فمن حقنا أن نتساءل أية دولة هي، أهي الدولة القومية، وهذه لا وجود لها بعد في الواقع ، وهي لا يمكن أن تقوم إلا بارادة قومية واعية تحقق ذاتها ، وقيام هذه الارادة يقتضي بدوره وجود الدولة التي تعد مقوماتها ، أم ماذا ؟ ولكن الرد سرعان مايأتي من المناضل الذي لا يعرف اليأس الى فكره سبيلا :

١٣ - «ان الأمة العربية هي ينبوع الشعوب السامية كافة ، عالم بذاتها، لم تأفل منذ ظهور الانسان على مسرح التاريخ ، وهي تطهر بفيضها في كل مرحلة ما تراكم من آثام على الشعوب فتهديها الى تحقيق آمالها . مثلها كمثل اصل الوجود يتكاثف حيناً ثم يتناثر بعد حين فتنجم الشموس عن تكاثفه ثم تنتهي بتناثرها في الاثير ، كذلك هي الامة العربية ، وهي عبارته ، فانها أبداً مشرقة بنورها على الانسانية . وقد تبدو حيناً مفككة متناثرة، أبناؤها منزوون في قوقعة من الانانية، إلا أنها لا تلبث حتى يسطع فيها نبي أو زعيم فيبعث بها من جديد ويلقي النور الحاصل من تأججها شفقا على العالم أجمع ، فيهدي الامم حينئذ بنارته الى تحقيق رسالتها . وعند ذلك تتحدى هذه الامة تقديرات المؤرخين» . (١)

* * *

لقد كان «الاستاذ» - كان هذا اللقب إذا أطلق في لواء الاسكندرون ينصرف اليه حصراً - مناضلاً قومياً صلباً ورائداً من رواد الفكر القومي ، آمن بأمته وبأصالتها ، وهاله تخلفها وتمزقها وتحكم الاغيار في مقدراتها ، فثار على هذا الواقع ، وما عجز عن تحقيقه في عالم الواقع نقله الى عالم الافكار ليبقى منارة على

---

(١) الدولة والامة ، ص ٢٩

الدرب الطويل الشائك وجسد في نظريته عن الدولة آمال أمته في دولة قومية تقوم على الديموقراطية السياسية والاجتماعية والعلم الحديث وتسهم في تقدم الانسانية وحضارتها . انها حلم كبير لمناضل عظيم . وخير تكريم لذكراه أن نصمد على الطريق ، فما كان حلماً كبيراً أصبح في الواقع مطمحاً جماهيرياً ، لقـــد بدأت الامة تعي ذاتها ، رغم كل العقبات والمعوقات ، ولا بد لها أن تنتصر على طريق الوحدة والحرية .

مجنون عائشة

عبد الوهاب البياتي

(١)

أيقظني في الليل
غناء عصفور ، فأوغلتُ مع العصفور
في الغيهب المسحور
لم تستطع سجن الربيع آه في بستانها :
رأيت غصناً مزهراً يطل في الديجور
عليّ من فوق جدار النور
بكيت ؛ فالربيع مر ثم عاد وأنا مازلت في بوابة البستان مُصلّياً
لغصنه المزهر ، للنور الذي يأتي من الداخل ، للألوان
وحاملاً نذري الى عاصمة الخلافة
وحجر الحكمة

لعل نجم القطب
يصير لي جسراً على نهر جحيم الحب
فأعبر الصحارى
أمشي وراء ناقتي والفجر قدامي الى بخارى
أعود منها حاملاً نذري الى دمشق
مطارداً وجائعاً للحب
أكتب فوق سورها معلقاتي العشر
أعقر في بوابة البستان ناقتي وأمضي هائماً في الفجر
مرغاً وجهي بعطر الزهر
مخبئاً وراء قاسيون
موتي وموت المدن الأخرى التي أصابها الطاعون
وقمر الطفولة المجنون

(٢)

خبأت وجهي بيدي ،
رأيتْ
عائشة تطوف حول الحجر الأسود في أكفانها
وعندما ناديتها : هوت على الأرض رماداً وأنا هويتْ
فنثرتنا الريح
وكتبت أسماءنا جنباً الى جنبٍ على لافتة الضريح

(٣)

سينتهي النهار

عما قريب ، ضمني بين ذراعيك وُخذني نحلة عطشى الى الأزهار
سينتهي النهار
بين ذراعيك وبين البحر والسماء والصحراء :
قالت ومدت يدها للنار
فاحترقت سفينة في بحر قزوين وغاصت في دم الأمواج
وُفتحت للبدوي وهو في غربته الأبواب
فسار لايلوي على شيء وراء نجمة الصباح والناقة والسراب
فوق سرير هذه الأرض التي تنهار
لتلد الرجال والأفكار

(٤)

واأسفاه ذهبت صيحاتنا سدى

(٥)

تعرّت الأشجار
وسقطت أوراقها وكنستها الريح
ونحن في المنفى : غريبا غريبين ، نرتدي الأكفان نبحث في المعنى
عن المعنى وفي سفر الخروج لم نجد بوابة البستان
ولا تعازيم سقوط مطر الأسفار
ولم نجد عشتار .
كانت خيام الحب في الصحراء
منهوبة والبدوي حولها يداعب الرباب
وكانت الغزلان

مذعورة تبحث في مصيدة الموت عن الفدران
قالت ، وكنا نبوح « اللوثر » مأخوذين :
غريب غربتين
أنت ، فخذني نحلة عطشى وضم هذه النحلة في المابين
بكيت ، فالربيع في باريس
يُولد مرتين
في شكل امرأة
ترهص بالبراعم الخضراء والضياء والمطر
تضحك هازئة

(٦)

شاة بلا قلب يداون بها الجنون

(٧)

رسائلي وكتبي أحرقها الفاشست
من قبل أن أكتبها في القلب
وختموا فمي بشمع الصمت
لكنني هربت من عاصمة الخلافة
مطارداً وجائعاً للحب
وقاتلاً مقتول

(٨)

في زمن الفوضى وعصر الرعبْ
أشعلت نار الحب

(٩)

وأسفاه ذهبت صيحاتنا سدى

(١٠)

للغة القبيلة القادمة الجديدة
لوثن القصيدة
أتبع موتي حاملاً رأسي الى الخليفة
في طبق ، ... فلتمطر السماء
دماً وأرجوان
كنا حبيبين : طريدين وملعونين
مابين نارين وعالمين
نكابد الغربة في المابين

(١٢)

أواه ماأقسى عذاب الحبْ
حين يغيب في سماء الليل نجم القطب
وحين يعوي الذئب

(١٣)

لاأستطيع شرح سر قمر الصحراء
وضحكات الجن في مدافن القبيلة
خواتم تلمع في الظلمة : قالت وبكت : كم ليلة اليك
نظرت من كوة قبرية وأنا أغالب الأرق

وجسدي يغسله الفجر وخدي فوق خد الأرض
وفمها فوق فمي ؛ لاأحد جاء ولا ذهب
من بحر قزوين الى حلب
أنام في أرجوحة القمر
وسكنت ونحن في « اللوفر »ضائعين
في زحمة البشر
نسير في أعقابهم أموات
نبحث عن أصواتنا في ضجة الأصوات
نبحث في المعنى عن المعنى وفي سفر الخروج لم نجد
بوابة البستان
ولا تعازيم سقوط مطر الأسفار
ولم نجد عشتار .
وكانت الشمس الربيعية
تصبغ في حمرتها أشجار باريس الطرافية
– جميلة أنت : وقبلت فم الأرض وقبلت يد الأشجار
– جميلة : وطار عصفور وحط ينقر البذار
فاقتربت عائشة وأطعمته فلوى منقاره وطار
احس بالمطر
من قبل أن يسقط في الشوارع المشمسة المعطار
– سنلتقي في الساعة العشرين :
قالت ، وكنت ميتاً داخل نفسي ضائعاً مستلباً طريد
مرتحلاً وعائداً وحيد
أمشي وراء ناقتي والمطر الأخضر قدامي الى باريس

القاهرة ٢٤-٥-١٩٧١

شجرة الحلم

فوزي كريم

- بيروت

مبحرٌ

تتجاوبُ في خطوهِ زهرةُ البحرِ

تمحو خطاياه ، تعطيهِ سحرَ النبوه

فاذا مسه الجليدُ من الجن

أو رعشةٌ أيقظت فيه عرسَ البكاء

تعوّذ في عظمةٍ من حنين النساء

رأسه دولةٌ ، هصرتها النجومُ

أحالت دواوينَها مومياء

وأطراف ليلٍ ..

انا ذلك الطيفُ ، هل بعرفينَه

تشممت من ناهديك ارتحالي

على هيبة البحر ،
لاتسمعيني
سوى البحرِ ،
في خيمةٍ منه أطوي الحروفَ الحزينه
وأنسلُ من بينها فوق جرحٍ من الملح
أنسل طيفاً
فهل تعرفينه
اذا كنت خمرَ البقاءِ
اذا كنت سيفاً
اذا كنتُ منك اللباسَ الذي تلبسينه
وكنت احتضارك ....
هزّي إذن جذعي الملحَ
هزي
.. أُساقط عليك ثمار السكينة
مبحرٌ
يساوم جلد السماء
يبشر بالاغنيات القديمه
ويسحب خلف أغانيه
جرحاً من اليمّ ، جرحاً
من الصمت ، جرحاً من الاشقياء ،
ولا ينتهي .

سيفُه صائمٌ
تتوالد من شفرتيه الضغينه
تلوذ به قبضةٌ
غسلتها السكينةُ والكبرياء
مبحورٌ
عشبةٌ : تتهشم في شجر الماء
عشبةٌ : يتلبسها الليلُ مثل الرداء
مبحورٌ
حوله النارُ عذراء فيها
حلمٌ يتلاشى
يفض بكارتها كالنساء
فتولد أعراسُه .
أسمعيني اذن
أنا ذلك الطيف
أفتحُ بالبهجةِ جدباً .
... فأي الشياطين بي ،
اي وهم النبيين ،
هاتِ الكفافَ :
فخبزُ المسافر أوجاعُه فوق الثرى .
انا ذلك المبحرُ السندباد ، بلا رايةٍ
حمّلته الظهيرةُ

زوارقَ اشلائها ، حنط تلك الزوارقَ
أوحى لها ان تكون
: سراجاً ، توقدُ من نخلةٍ
جذرها ثابتٌ ،
وأطرافها في سماء الفصول .
أسمعيني اذن :
حقلك الدافىء أوصيته :
ان تساو مع الوحش
أوجزْ خطاك
ففي الخطوة الموتُ ، في الوقفةِ الموتُ
أوجز خطاك ...

-١-

« يافقراء الارض
ياصحارى
يانبضة الجليد ، يا
قافلةَ الزمان
تفتحي للجان
مهرك - هذا العرس - خطوتان
على صراطٍ ، سقطت حيارى
من شفتيه كلمات النصر والهزيمة
فخلفي حيرتك القديمه

وخلفي خطاك ، خوف أن
تحملك النيران
وليمةً لسيدي السلطان . »

- ٢ -

« الأرض اذ تدور
في برجِ هذا الحلم المائلِ
لاتمسنا الرمضاءُ ، لا
تحملنا الصحارى
فليلنا القبورُ
والمتكأ انحناءةُ الظهور
ونحن من نداءك الرمضاء
من نداءك البحور

. . .

الفقر صحوٌ
غير أن السيف
يجيئنا في السيف ... »
انني ها هنا
عباءةُ جدي هنا ، والجسور
حملت عطرها للضفاف
حملتنا معاً
كنت في قوسها لا أخورْ

نبلةٌ في الشغاف
عباءةُ أمي هنا
سلم أرتقي فيه نحو الحضور
فيوجزُ همي
أرى وجهها في النشورْ
يحدثني :
- هل رأيت التي تفتّح أوجاعها
كنتَ - حين ابتداتُ الرحيل -
مع العشب
طفلاً
مع النوم حلماً ،
وكنتَ لقلبي
فأين انتهت طرقات العبور .
الى الموت ؟
لا ، فأنا الميتة
الى دفلةِ النارْ ،
الى حرقة أنتَ فيها
صلاةٌ ودارْ
الى . . .
انني مبحرٌ
خيمةٌ في صحارى الدوارْ

هجستني التواريخ قالت :
أهذا الذي ؟
قلت : لا ..
اني مبحر ، وعصوري جوار
ملأتها الدموعُ ،
استفاقت بها أغنياتي
الى جسد الشرق
ـ ما مسح الشرقَ صوتي
ولا زهرة فتقتها صلاتي ـ

ـ ٣ ـ

« ـ هل عرفتَ الجوع ؟
ـ الجوعُ صليبي
منذ صار الخبزُ جرحاً في بلادي
ـ والمياه ؟
ـ كلماتُ الأرض
ـ والشاعر ..؟
ـ في الأفق آله .
ـ . . .
ـ ونزلنا
هذه الرملةُ تسعى
هذه الزحمة أفعى

وصرخنا

أين بيت النوم ..؟

- هل كنت حصى

كنت حجاره

إذ رأيت الدمع في العين محاره

وتعنيتَ بها .

- وصرخنا

أين بيت النوم ؟

كي نبصر أحلام بلادي ..

- سلبتها سورةُ المجد

وأعطتها نجوماً مستعاره . »

- ٤ -

« أنا منذ السابعه

حملتني رعشةُ الموت عمامه

لغدٍ ، كنتُ به سراً

أذاعته - من الميلاد - أرضي

فعرفتُ الحزنَ في الضحكةِ

والضحكةَ في أوجاع بغضي

وعرفت الله : سيفاً

يتشهى جسدي ، يومَ القيامه

أنا منذ السابعه

صلبتني النار منذ السابعه

لم أرَ "الدار" بلاداً

حضنتني

ودروبي ، لم تكن يوماً جواداً

أتخفى فيه عن لحظة حزني

فأبي : شرفة داري

واخي : كل دروبي

ونجومي

لم تكن يوماً - على الشوق - بحاري

أنا منذ السابعه

مبحرٌ دون شراع أو علامه . »

وفي غابة السنوات ، رأيت المرايا

تتقاسم وجهي

- هنا كنتُ ،

من ها هنا جئتُ ،

وخطوي هناك -

وفي الليل ترسب كل المرايا

وتهزلُ في النوم ،

في حلم النوم ، كل المرايا

تبادلني صورة العشب والماء

وتحملني موجةٌ منها ، كنت فيها

يداً تتلمسُ دروب السماء

وأهدأ ...

(عاد الذي صلبته اليهودُ

الى شجر النوم)

أبصرُ ظلاً

يهاجرُ ، يمسح كل الخطايا

فأحلُ همّاً ترسب بي

: إنني مبحر

أتوزعُ في رملةِ الشرقِ

جوعي شراعُ

وصاريتي لعنةُ الأولين

وأبصرُ : لا خيمةٌ أو ذراعُ

تلوّح

تـُضيء الذي كنتُ فيه

وتعرفني

: انني مبحرٌ في المرايا .

بدأت
أخلق الجواد

فتحي الكواملة

بدأتُ أخلق (الجوادَ) من جديد ..
من نطفة أودعتُها ..
بواطن الخطوب ..!
إذْ عيل صبري من جواديَ القديم ..
أن يؤوب
وطال عن رفاقيَ الغياب
وصاح سيفي : لن أضاجع التراب .

. . .

بدأت أسمع الصهيلَ ..
من جواديَ الجديد ..
مجلجلاً في عتمة الدروب .
كأنّهُ (الأذانُ) في الغسقْ ..

مبشراً بالفجر .. بالشروق

. . .

عما قريب أحتفي ..

بمهوي الحبيب

فأمه في لحظة المخاض

وعندما يلوح الوجود ..

ويكتحل العينين بالضياء ..

سأمتطيه عائداً ..

للساح يارفاق

. . .

لاتعجبوا من فارس عجيب ..

يروض (مهراً) منذ لامس الثرى ...

وقبل ن يشارف الفطام ...

فانني فطرته ..

من مارج من نار ...

من نطفة عمدتها ..

في مسعر الثوار

. . .

خطوات عند الفجر

وديع اسمندر

مع الفجر ، لم يكن يسمع في طرقات المدينة غير خطوات رتيبة متزنة لاثني عشر رجلاً ، اثنان ينتعلان حذاءين طويلين لا صوت لهما ، وعشرة رجال ينتعلون الأحذية الثقيلة . كان الاثنان يسيران كتفاً الى كتف ، ومعصماً الى معصم ، والآخرون يمشون في إيقاع مكتوم ، طالما ردد على مسامعهم :

— واحد ، اثنان .. واحد ..

كانوا يتقدمون ، مقاربين صفوفهم ، يحيطون بالرجلين من الجهات الأربع ، يخترقون شوارع المدينة . وكانت الشوارع خاوية حتى من حرّاس الليل ، وقد بدت في أعين الرجلين اكثر طولاً مما تبدو عليه في النهـار ، وكأن حرارة الليل أذابت الاسفلت فتمددت الشوارع واستطالت ، وظهرت أشد امتلاء من ذي قبل ، شوارع عريضة ، منتفخة البطون ، كأنها تحمل جنياً غاضباً ربما ولدته في لحظة ما ، في حين وقفت المنازل بقاماتها المهيبة ، تحدق باعينها الكبيرة ، ترنو الى تلك القافلة من الرجال ، دون أن يرف لها جفن . كانت الأرصفة ترافق

الخطوات الثقيلة محيية بصمت حزين رتلاً يذهب الى مكان آخر ، بينما قفزت من رؤوس أعمدة الشوارع ، عيون صغيرة لمّاعة ، تثقب العتمة ، تحدق ، تراقب ما يجري وترتجف . كان الاثنان يلوذان بالصمت ، وهما يعلمان أين سينتهي بهما الطريق ، ولعلها كانت المرة الأولى في حياتهما التي يجتازان بها تلك المسافة دون كلام ، لكنهما مع احتكاك كتفيهما في كل خطوة ، كانا يشعران بأن حديثاً خفياً يجري بينهما ، حديثاً غاضبـاً نزقاً ، يدور عبر سلسلة الفولاذ التي تجمع معصميهما . وكان كل منهما يود لو أنه وحده ، ويشعر بأن رفيقه يشكل عبئاً ثقيلاً عليه . لم يكن أحدهما يحس ضرورة غياب الآخر من قبل ، أما في تلك اللحظات ، وعندما اختلفت مهام الرحلة ، أزعجهما وجودهما معاً ، وهما اللذان لم يفترقا منذ سنوات ، يوم تعارفا في ليلة كهذه الليلة ، كان العتم مماثلاً لهذا العتم ، انما الطرق والممرات لم تكن ذاتها ، كانت لحظة حرجة ، حمل فيها أحدهما الثاني ، اجتاز به اسلاكاً شائكة ، وفي وقت يشبه هذا الوقت ، ضمد له جراحه ، ثم عاد به الى مكان امين ، وها هما يمضيان معاً دون أن يقوى أحدهما على تضميد جراح الآخر . كانت انفاس الرجال من حولهما تحثهما على مواصلة التقـدم ، وفي عيني أصغرهما تومض نظرات حزينة ، كان يختلس النظر الى وجه رفيقه ، الذي ألقت أنوار الشارع الباهتة عليه هالة من الصرامة جعلت قسماته جامدة لا تنبىء عن شيء مما يدور في رأسه ، وحول عينيه ظلالة سوداء حجبتهما عن عيني رفيقه المتطفلتين ، كان يرغب لو يرى عينيه ، هو يذكرهما عندما كان مصاباً في كتفه ، وعيناه لا تفارقان وجهاً صارماً يحنو عليه وقـد أطلت من تحت حاجبيه الكثيفين عينان حادتان كعيني الصقر ، تساءل بمرارة :

ـ هل عيناه الآن كذلك ؟!

هو يعرفه جاداً في كل الامور ، حتى مـــع زوجته . انه لم ينس بعد ما دار بينهما من حديث وراء التلة الغربية قرب النهر ، يوم قصّ عليه كيف أمر زوجته أن تلد له طفلاً ، وبعد تسعة اشهر جاءه الطفل كما أراد .

– يا إلهي ، ماذا أفعل لأجله ؟!

كان قد أنقذ حياته مرتين ، وحتى هذه اللحظة لم يستطع تسديد جزءمن هذا الدين ، وكم تمنى لو يهب حياته لهذا الرجل ، لكنه أوشك على الضحك عندما أدرك أن حياته لم تعد ملك يديه ، وفجأة خطرت له فكرة مؤلمة ظل يرتبها مع نفسه ، الى أن جاءهما أمر بالوقوف ، كانوا قد بلغوا الساحة العامة للمدينـة ، حيث اقيمت منصة مرتفعة ، دفعا باعقاب البنادق للسير نحوها ، كانت عاليـة بعض الشيء ، يُصعد اليها بدرجات قليلة كتلك التي تقام في المناسبات ، لكنها خالية من الزينة ، خطر لها أنهم جاءوا بهما الى هنا لإلقاء محاضرة ، لكن الساحة كانت خالية من الجمهور وليس بها مقاعد أو باقات زهور ، والى جانبها يقفرجل بيده كتاب ما ، كانا وحيدين مع المنصة ، يتحلق حولهما ذوو الاحذية الثقيلة ، ينظرون اليهما بعيون يرقص فيها فرح مجنون ، و كأنهم سيشاهدون حفلة صراع بين وحشين ليسـا من هـذا العالم . تقدم منهما رجل واحد ، فصل بينهما ، سألهما بصوت جاف :

– هل تريدان شيئاً ؟ !

طلبا أن يتعانقا ، ضحك من طلبهما الرجال،استدارا اصبحا وجهاً لوجه ، تشابكت الأيدي ، تلامس الصدران ، شدّ كل منهما على جسم رفيقه ، سمع كلاهما دقات قلب الآخر ، حدّق أحدهما في عيني الثاني ، كانتا حادتين كعيني الصقر ، طافت في ذهنه ذات الفكرة المؤلمة التي طرأت له في الطريق ، صمم أن

يمنح رفيقه لحظات من الحياة بعده ، ضمّه الى صدره بقوة ، ثم دفعه عنه ، مسرعاً في الصعود الى المنصة وهو يصرخ مخاطباً ذوي الاحذية الثقيلة :

– ابدأو بي ! .

أمسكت به قبضة رفيقه القوية ، من الخلف . جذبته الى الارض، ضجّ الرجال بالضحك . بينما تابع الآخر صعوده الى الاعلى ، كانت المنصة الخشبية ضيقة لا تتسع لثلاثة ، وفي وسطها وضع كرسي قديم ، ينتصب بقربه شبح مكلل بالسواد ، وفوق الكرسي يتدلى من خشبية عالية حبلٌ رفيع ، فاغراً فمه أكثر من الجميع ، وقبل أن يصل رجل بيده كتاب مفتوح الى المنصة ، وضع رأسه داخل الانشوطة،دفع الكرسي من تحته، ارتجف جسده للحظات ، ثم سكنت حركته . خرجت صرخة حادة من صدر رفيقه ، هبَّ واقفاً ، سار خطوات باتجاه المنصة . وقبل أن يصعد الدرجة الاولى من السلم الخشبي كان أول شعاع من أشعة الشمس يحزُّ حبل المشنقة .

الذروة البعيدة

رياض عصمت

حرك عبد القادر مؤلس جفنيه الناعسين يستقبل اليوم الجديد . السقف أبيض .. ناصع البياض . حدق فيه بخمول فتصور نفسه في بلاد الاسكيمو : الاسكيمو حيث يغمر الثلج كل شيء، فانتابه إحساس غامض بأنه راقد حقاً تحت قبة ثلجية يسود خارجها الصقيع والظلمة وأخطار بلا حدود. وجذب عبدالقادر رأسه بصعوبة رافعاً إياه الى أعلى بعيداً عن ريش الوسادة الناعم ، لكنه ما لبث أن تأوه متألماً فتركه يسقط . كان هناك ثقل عجيب في مؤخرة رأسه يشده الى الوسادة : صداع أليم يقرع باطن جمجمته كصوت قنبلة موقوتة . ومرت بخاطره سهرة الأمس الصاخبة ، وأحس في حلقه بمرارة الوسكي الذي ابتلعه بوفرة . رنت الكؤوس وقال مضيفهم مدحت بك : «في صحتك يا مهندسنا العظيم » : كان يعرف تملق مدحت ، ويطرب له كما يطرب الجميع ، خصوصاً في حضرة الجنس اللطيف من سيدات المجتمع الراقي . رد آخر ممازحاً : « الأنخاب كلها لكم ، أما نحن فلن يهتم بنا ، المجد لكم يا بناة الحضـــارة » . تجرعوا الشراب من كؤوسهم ، وعاد صوت مدحت يتردد بينما كانت أصابع عبد القادر تعتصر الكأس كأنما تبتغي تحطيمه : «الواقع أن عبد القادر بك يستحق أن يلقب بجدارة بالبناء الأعظم، ان فنه يزرع السعادة

في نفوس البشر » . قسر شفتيه على ابتسامة مجاملة ، وقال باقتضاب : « لنشرب الآن .. » قاذفاً في بلعومه بنهم يائس جرعة كبيرة ألهبت حلقه وعقله معاً ، وأغشت عينيه بخدر لذيذ .

* * *

النسيم بارد منعش كعطر حسناء يتسلل عبر النافذة . الجبال شاهقة أبية ، كرؤوس حراب مشرعة ، أشجار الصنوبر تنتصب كالزنابق على قبر كبير . النسيم بارد حقاً في ذلك المصيف الجبلي الذي يهرب اليه كلما ألح عليه التعب أو الضيق ، وكلما انتهى من مشروع كبير . سحب طرف الغطاء حتى رقبته ، النسيم بارد حقا يتسلل من خلال الانسجة الى عظامه ليبعث فيها الرعشة . حرك المهندس عبد القادر رأسه مرة اخرى ومد ساقيه في الفراش الى اقصاهما بتمطي ، فعاد يشعر بما خلفه الشراب من ألم في صدغيه ومؤخرة رأسه . يقولون ان أفضل ما يداوى به السكر هو كأس اخرى عند الصباح . الزجاجة هناك في درج المكتب مخفية عن أنظار زوجته والأولاد ، لكن أين الهمة التي ستدفع به الى أن ينهض فيأتي بها . وارتفعت عيناه غريزياً الى سطح المكتب فاستقرت على مسطرته المتعامدة وعلى الأوراق والحقيبة والأدوات وزجاجات الحبر المختلفة مستقرة بانتظام . المسطرة المتعامدة ! ابتسم . سأله طفله ذات يوم بسذاجة حقيقية : « ماذا تفعل بهذه المطرقة يا بابا ؟ » كانت حقاً تشبه المطرقة ، والصداع ينهال على رأسه بضربات منتظمة .. منتظمة جداً . عاد يرمق المسطرة في ذهول وبدون اكتراث . كم يبدو الماضي متشابكا ! الفراغات بين الازمنة تذوب . الزمن سلسلة لا انقطاع فيها . البارحة .. أو قبل خمس عشرة سنة ، كله سيان . الفرق في حدة الضوء الملقى . باقي الفروق تسقط .

* * *

– « أتدري يا كمال ؟ ان دراسة الهندسة صعبة جداً خصوصاً هذا العام . »

– « اطمئن ستنجح . هل قرأت قصيدتي الجديدة التي نشرتها مؤخراً ؟ »

– « أنا لا أقرأ الشعر . اني أبني للناس بيوتاً من اسمنت وحجارة . » أجاب باستهتار وقح انعكس في عيني كمال حزناً عميقاً كما تنعكس الصورة على صفحة الحياة الرقراقة : « أتظن الخلود للمادة فقط ؟ للشيء ؟ الخلود للشعر يا عبد القادر .. للروح التي تكمن فيه والتي يبثها أيضاً . المطلق في الشعر ، وعلاقتنا بالاشياء يجب أن تنطلق من احساسنا بالشعر . »

انتابته ثورة عارمة : « الشعر ! الشعر ! أيبني الشعر بيوتاً ؟ »

بهدوء أجاب كمال : « لا . لكنه يبني للبيوت بشراً . »

* * *

كفاك خولاً يا عبد القادر . كفاك ذكريات . أنت تعلم تماماً انك تنبش في لحدك ، وأن تغيير اتجاه سير حياتك صعب .. صعب . انت الآن عبد المادة ، لمشيئة الرب الذي جعلك مهندساً ، للبيوت والأحجار التي تصمم منها بيوتاً للناس . أيتها النفس المتناقضة كفي عن اثارة الآلام ، واجعلي الجسد يستمر في سعادته المريحة . نهض من فراشه بصعوبة . اقترب من النافذة حتى التصقت أرنبة انفه بزجاجها . السماء فسيحة ، صافية الزرقة كالبحر ، ترعى غيومها الصغيرة كالأمواج ، أو كقطيع من الخرفان الضالة . السماء نقية .. عميقةالنقاء كماء الينابيع، أو كأنها تريد أن تغسل العالم كلهبصفائها . كم يشعر بالحاجة الى صوت من السماء يرشده ويبعث في روحه الايمان .. الايمان بمايفعل ، الايمان بجدوى وجوده .. والايمان بالروح المبدعة .

* * *

في أحد الايام قبل ما ينوف على عشرة أعوام قال لصاحبه كمال الذي لم يعرف غيره صاحباً وخصماً في الوقت ذاته : « لنسرع بالعودة . حان وقت الصلاة » . كانا يجولان الشوارع للفرجة والحديث . ابتسم كمال خفية ، فأردف متسائلا في قلق وغيظ مكتوم : « ألا تصلي ؟ » كانت معرفته بكمال حديثة ، لكنه وجد فيـــه مغناطيساً سحرياً عجيباً يشده باستمرار رغم حدة الاختلافات بينهما . وبصوته الوقور الخافت كالعادة أجاب كمال : « اني اصلي على طريقتي الخاصة . »

— « لاتحاول خداعي بمصطلحاتك البهلوانية هذه . انك لاتؤمن . استطيع أن ارى ذلك جيداً . » كان يحاول أن يدينه بقسوة لم يعرف سبباً لها .

— « لابد للانسان أن يؤمن بشيء ما ، فالايمان لب العمل . »

— « دعك من هذا . انك كافر تحاول ايجاد تبرير لكفرك . »

— « وما حاجتي للتبرير ؟ انك لاتفهمني اطلاقاً . انني حر .. انسان حر كنجمة في الفضاء . انت الذي لاتؤمن ، فأنت لاتملك حتى القدرة على الايمـــان ، أنت لاتملك الروح ، ولهذا تتجه نحو ابسط الطرق وأسذجها . أما أنا فأؤمن بكثير من الاشياء . اؤمن بالارادة الانسانية ، وبالجمال ، والحب . »

كان الكون ينضغط حول عبد القادر مؤتنس في تلك اللحظات . وفكر بتلك الكلمات ، لكن الفكرة ما أن دخلت رأسه حتى وجدته خالياً فطارت ثانية . عاديقول في جدل عقيم :

– « ما زلت تتهرب . انك ملحد تنكر وجود الله . »

– « عندما يختفي إله يظهر آخر . المهم أن يكون الايمان أصيلاً ، لن أجادلك . كل ما أريدتأكيدهھو ايماني بحريتي وفعاليتي كانسان وما ينبثق عن ذلك من مسؤوليات. انني أؤمن بأن المادة لاتحيا طويلا دون روح ، والروح لاتنمو وتصقل الا اذا أرست الاساس عميقا ، عميقا جداً في النفس البشرية . »

* * *

كان الزجاج قد تعرق أمامه حتى حجب كل اتساع السماء . لقد نسي الدين فعلا خلال سنتين ، ولم يستطع أن يملأ مكانه الا بجرعات تسطل الرأس ، ونساء تفوح رائحة قذارتهن كمرحاض . لكن الخمرة صديق غادر ، فما أن تصحو منها حتى تجد تعاستك تطل كما هي ، وقد ازداد شحمها ولحمها ، كأنها وحش بشع موه نفسه بدخان عابر . النسيان ضباب كاذب . والعاهرات ... حتى العاهرات لهن قصص يائسة وآلام ، وقيم أحياناً قد تختلف من القيم المتعارف عليها دون ان تفقد أصالتها . انهن يملكن الاحساس بالحق في ممارسة الحياة ، أما هو فليس له شيء أبداً . العالم مجرد أشياء خارجة عنه .. أشياء بلا معنى . انه لايحس بها، بل يستخدمها كالغريب : يبني البيوت للبشر ولا يستطيع بناء بيت واحد يؤوي اليه تلك الروح الحائرة المعذبة .

* * *

انقض على شفتيها المكتنزتين يقبلها بحيوانية ويداه تعتصران جسدها المترهل .. جسد متغضن كبقايا تمرة استنزفت من اجل متعة الآخرين . كانوا يسمونها جميلة ومدت اصابع عجفاء معروقة تمسح صدغ الفتى عبد القادر في رفق . وفجأة ، جمدت نظراته على المنضدة الصغيرة الى جانب السرير حيث استقرت مجموعة قصائد . سألها بخشونة وهو يبعد ثقل نهديها عن صدره : «ما هذا ؟» أجابت ببساطة : « شعر اسمه «قطرات ندى » هل قرأته ؟ » حتى هي ! حتى هي ! « لا أقرأ السخافات . » أجاب وتابع : اذن فكمال يزورك .. الشاعر يأتي الى هنا ايضاً ليصلي على ما اعتقد بطريقته الخاصة . رمقته بثبات : « ربما ، وربما لا أفهمه تماما ، ومع هذا صدق انني احترمه . لديه فلسفة

خاصة استطيع انا عشيقة الامراء والوزراء الاحساس بها على الأقل . أرجوك لاتنه ولا تبق معه . »

– « حتى كبرياءه علمك اياه . »

– « لي الفخر ان أتعلم من كال . السنا بشراً ؟ »

– « أنتن قردة ممسوخة . » كانت جدران الغرفة العتيقة المهترئة تضيق من حوله شيئاً فشيئاً ...

تأمل جيلة ، حتى هي ، العاهرة القديمة التي انتقلت بين مضاجع الاكابر أيام صباها وتمرغت في قذارة الحانات عندما سربلها الكبر ! قالت ببرودة قائل « ذكرتني ، لك عندي هدية . » ومدت ذراعها السمينة فوق أنفه بينما تدلى ثدياها المترهلان فوق عينيه لتتناول من درجها شيئاً . ملأت رائحة عرق ابطها خياشيمه فشعر بحيوانية عجيبة . تراجعت ووضعت أمام عينيه صورة ملونة من البطاقات التي تباع على ارصفة الشوارع .

– « هدية منك ؟ ؟ » وعلى البطاقة التي بين أصابعه ارتسمت صورة قرد يحمل معدات مهندس وهو يبتسم بغباء .

– « هذا أنت . انه يشبهك يا عبد القـــادر بك . » قالتها بسذاجة غير مفتعلة ، فانهالت يده بلا وعي على وجه جيلة في صفعة كالسوط ، وقام يلبس بنطاله وهو يدوس على البطاقة المكرمشة الملقاة على الأرض . كانت جيلة قد ادارت له ظهرها . شعرها الأسود المشعث منساب خصلات متناثرة على رقبتها المرتعشة . كان يعلم انها رغم تجلدها وصمتها ، تبكي .. تبكي الماضي المندثر كبقايا كوب محطمة .

* * *

الشمس تزداد ارتفاعاً وحرارة . أصوات الناس في المصيف صارت مسموعة . الصباح ؟ الصباح جميل ! لكنه متعب وكئيب . لا يدري تماما متى بدأ هذا معه . ربما ولد هذا معه دون ان يفرغ منه الا الان . لقد كبر ، وبدأ يستعمل حتى الصبغة التي كان يعيب رفاقه عليها . كانت ملامح زوجته تؤكد ذلك جيدا لناظريه . لم يكن من الحقيقة مهرب . وأطلت زوجته عليه بثوب النوم . لاشك انها تشبه جيلة القديمة بترهلها ، بل ربما كانت اكثر منها شبقاً واشد سذاجة . لايدري كيف تزوجها ، لكنه ظن يومئذ ان

الحل قد يكمن في ذلك . كانت متوسطة الجمال ، واكثر نحولاً ، وكانت لها ثروة لابأس بها تغري طموحه للعمل الحر . هاهي زوجته تطل عليه بثوب النوم ورائحة المطبخ تفوح منها كعادتها دائماً .

– « صباح الخير . لماذا تأخرت البارحة ؟ أكانت السهرة حلوة ؟ » ماذا يقول لها ؟ لا يدري ما يجيب ! أحاديث تأتي وتذهب حسب المزاج وما تأتي به كؤوس الراح .

* * *

« حضارتهم رائعة يا اخي . شوارع ومطارات تأخذ العقل . كيف لنا ان نلحق بهم . أمة عظيمة يا اخي . الغرب مدهش ، وهو افضل قدوة نقتدي بها . أليس كذلك يا عبد القادر بك ؟ « أجل .. أجل . » رد وذهنه يحلق في فضاء بلا حدود . الحضارة ! ما قيمة الحضارة ان لم تحتو على الروح .. الجوهر – كلمات كالقديمة . « حضارتهم مذهلة . » أحس برغبة في ان يصفعه بقفا يده لكن الايمان كان ينقصه . الروح والجوهر بعيدان عنه آلاف السنين الضوئية كالنجوم . مد يده يتناول الكأس .

* * *

نظر في عيني زوجته الناعستين وقال : « سهرة كباقي السهرات . ألا تعرفين الجو ؟ » .

لم تكن تنتظر جوابا على اية حال . لقد سألت بدافع الثرثرة لا اكثر . تنهدت قائلة « الفطور جاهز » « اني ذاهب . لن آكل . » – تذهب الى أين في هذا الوقت ؟ خير ان شاء الله . » رمقها بصرامة كتمثال ولم يجب . ليس المهندس عبد القادر مؤنس بذاته الانيقة فوق روحه الهرمة . وأحس بساعته تشد على رسغه كالقيد ، ففكها باهمال وألقى بها في جيبه لتغوص مستقرة في الظلام الى جوار فخذه النحيل .

* * *

اخذت خطواته تقرع ظهر الارض في رتابة مصدرة صوتا على الاسفلت كخبب دابة . عبد القادر مؤنس ينظر الى الامام بثبات : والطريق طويلة ، لا بداية ولا نهاية . السهل ينبسط على سفح الجبال بقعا متناثرة غنية الالوان . الجبال عالية بعيدة تمد قممها لتناطح الغيوم ، لتقبل وجه السماء . الارض خضراء تزدهر بالنضرة والحياة ، كقطعة

حرير موشاة . أشجارها تتمطى في دلال ، حورهـا يهز عقود اللالىء على ذوائبه ، وصفصافها يغسل شعره المسدول بغير عناية في مياه نبع رقراق ، أو يميل بعنقه ليلعق ندى الصباح من أطراف الأزهار البرية . ربطة عنقه تشد على رقبته باحكام خانق ، بينا تلوح نهايتها كحبل مقطوع . على التل لمح شيخاً مهيباً فارع القامة له لحية بيضاء كسحابة وقد قبضت ذراعه على رسن دابة يسيرها حسبما يشاء . ربطة عنقه اللعينة تحز عنقه كحبل مشنقة . رفـع عينيه نحو السماء فوجدها بعيدة .. بعيدة . تابع مسيره الذاهل بلا غاية وفي عينيه نظرة حالمة مجنونة . « ليذهب كل شيء الى الجحيم . لقد اضعت وقتي سدى.» السهل يحوي براءة خفية عجيبة تشد الروح اليه ، تجذبها كالمغناطيس، كالسحر ، كالجاذبية الارضية . النقاد .. النقاد .. والبناء الأعظم يلوح بذراعيه كفزاعة الطيور كان يحلق في ذلك البعد الرائع أمامه ، يحاول بشغف أن يمسك اللامتناهي . لكن السراب كان معلقاً بظله ، كان غيمة تلحق به كالشؤم . المنظر يتباعد كلما دنا أدركه اليأس ، وبدأ حلمه الشمل يتلاشى كبقايا الضباب. تعب ، فخفض بصره ذليلا الى الارض . كانت حرباء رمادية اللون تزحف على بطنها اللدن فوق الصخور ببطء ودون اتجاه كأنها عمياء . نظر عبد القادر حوله في يأس مجنون كفاقد البصيرة وحيرة مطبقة تلفه ثم عاد يسير متهالكاً بدون هدف .

* * *

قدح الوسكي المثلج بين أصابعه يحاول ان يصب منه ضباباً على عقله . هتف صديقه مدحت فجأة عندما فتح باب غرفة الاستقبال في جذل : « أقدم لكم يا جماعة ابني جلال . »

– « ماشاء الله ، لقد كبر ولدك يا مدحت وصار شاباً . »

– « انه يفضح يا مدحت كبر سنك الذي تخفيه الأصباغ . »

– « الله يجازيك يا فهمي . الصحة والسرور هما الأساس . »

– « مساء الخير . أهلا وسهلا . »

– « كيف حال الدراسة يا كمال ؟ بأي صف صرت ؟»

– ابني سنة ثانية آداب . »

– « جامعة ! باسلام ! غير معقول ! »

– « انه شاعر ايضاً . »

- « في الصيف القادم سأطبع أول ديوان لي . « وابتسم بصفاء وهو يبادلهم التحيات . عيناه رصينتان كشجر الصنوبر . « عدم المؤاخذة على مظهري فقد كنت في الجبال » .

- « في الجبال ؟ وحدك ؟ »

- « أجل من هناك أرقب الغروب . هل جربتم مراقبة الغروب ؟ ما أبدعه ! الظلمة تمتد رويداً رويداً فتغرق الكون في سكون غريب . وتتلاشى الأشكال ، وتبهت الألوان وتبدو الجبال هائلة مخيفة ، ويتضاءل احمرار السماء حتى يصبح سواداً تاماً . الغروب يشعر الانسان بالمحبة والتفاؤل » .

ابتلع المهندس مؤنس بعضاً من الويسكي وسأل لأول مرة بتعجرف كاذب : « أكتبت شيئاً اليوم ؟ » وأجاب الشاب بشيء من الدهشة : « بضع أبيات فقط من قصيدة طويلة اسمها « الذروة » . - « وهل الذروة موجودة حقيقة ؟ « ضحك الشاب» « نعم ولا . كيف اشرح لك ذلك ! يجب أن تشعر بها وبما تجلبه الى ذهنك من صور . انها هناك على أية حال ان كنت مهتماً بالأمر . ومد يده عبر النافذة يشير الى قمة سوداء بعيدة . « أحلم أن ألمس السماء وأعانق السحاب .. وأرى العالم كله تحت اقدامي » .

* * *

خطواته تلهث ، والطريق متصاعد ، صعب بلا نهاية . تنهد . لابد أن يصل . وخزه شيء في جيبه . مد يده وعندما فتحها رأى الساعة تستقر على كفه المنبسط تعمل في اطمئنان وانتظام . لاشيء يؤرقها . قلمه الحبر الفاخر الذهبي من نوع باركر . وكذلك النقود اللامعة تأملها فاذا بها تحجب خط الحياة الذي دله عليه منجم ذات يوم . مستحضرات الحضارة الرائعة . شعر بالقرف ، فألقى بها . مازال يسير . الحر شديد . خلع سترته ، وببساطة ودون اكتراث ألقى بها وراءه . اتبعها بقميصه .. ثم بحذائه .. وجوربه . وبنطاله صفاء عجيب .. صفاء يغمر روحه فيجعلها شفافة نقية . بريء الان كطفل حديث الولادة . ابصر أمامه شجرة توت نظر الى أعلى فلاحت له الذروة.. الذروة البعيدة . تعب .. تعب ، لايكاد يشعر بساقيه ، لكن لابد من الاستمرار ، فهو سعيد .. بالغ السعادة في تلك اللحظة . الذروة .. الذروة .. ومد يده يقطف من شجر التوت وريقات ...

وحدة

كوليوجورجييت (١)

ترجمة : محمد سامي فريد

---

(١) ولد كوليو جو رجييف في « جوليامو توفو » احدى قرى اقليم « تورجو فيشتيه » من بلغاريا في سنة ١٩٢٩ .

● تلقى تعليمه العالي في روسيا، حيث حصل على درجة البكالوريوس في الاقتصاد والتخطيط الصناعي من جامعة لينتجراد .

● صدر كتابه الاول عام ١٩٦٢ تحت عنوان « أحسن ما في هذا العالم » وهو كتاب تعليمي للاطفال ، تلته مجموعاته القصصية « عم مساء يا أبي » – ١٩٦٥ – « الاصدقاء » – ١٩٦٦ – « أيام الحزن » – ١٩٦٧ – والاخيرة تظهر بجلاء شديد افتتان الفنان بذكريات طفولته .. أحب سنوات عمره اليه .

● حازت قصصه التي نشرها جميعاً رضى القراء واعجاب النقاد معاً لما فيها من بساطة تأسر ، ولكشفها عن أدق خلجات النفس الانسانية ، ولتعبيرها الصادق عن وجهة نظر المؤلف المفعمة ببراءة الطفولة وحب الحياة .

● ويعمل كوليو جو رجييت حالياً في اذاعة صوفيا .

هذه هي المرة الأولى التي أتلقى فيها مكالمة تلفونية منذ أيام ... وأهرع إلى التلفون .. أرجو ألا تكون النمرة غلط !

– نعم ؟

– من ؟

– من تطلب ؟

– هل العمة سفتلا هي التي تتكلم ؟

– كلا ! ليست العمة سفتلا . ألا تستطيع أن تعرف من الصوت أن المتكلم رجل ؟

– أهذا أنت ياعم بيت ؟

– نعم أنا . من المتكلم ؟

– رومى !

– رومى من هه !

– رومين دونييف ستيفانوف ، ألا تعرفني ياعم بيت ؟

– أو ، رومى ، أنا آسف ! عندما سألت عن عمتك سفتلا بصوتك الجهر هذا ظننتك رجلاً !

– هل استطيع أن أكلم عمتي سفتلا ؟

– فيم تطلبها يارومى ؟

– فقط كنت أود أن اكلمها كلمة او اثنتين .

– أهو سر ماتريد قوله لها ؟

– كلا ، لكنني أفضل أن أكلمها .

– مفهوم .. مفهوم ، سهل على أي رجل أن يفهمك . هل تتحدث من منزلكم يارومي ؟

– من الفيلا . لقد ركبوا لنا الآن جهاز تليفون هو الذي أكلمك منه. لقد طلبت عمتي نادكا ، لكنني لم استطع أن أكلمها . عندما طلبت عمتي نادكا على على التليفون غضب عم سيمون وقال انها مريضة ثم (قفل السكة) . لقد ظن أن رجلاً يطلبها ، هو أيضاً – مثلك – لم يعرفني . أتعرف . لقد طلبتها هذا الصباح ووعدت بأن أطلبها ثانية . إنها ليست مريضة . سأنتظر حتى يخرج سيمون ثم اطلبها . انه عادة مايخرج الى العمل في الثالثة .

– مهلاً يارومي .. انك تكاد تمزق شمل العائلة بمكالماتك التلفونية هذه!

– ولكن عمتي نادكا يسعدها أن تكلمني إنها مغرمة بالأولاد كما تعرف، فهي لم ترزق ولداً . مسكينة ياعمتي نادكا ! أهو ذنبها أنهما لم يرزقا أولاداً ؟ العيب ليس عيبها أليس كذلك ؟

– اسمع يارومي ، أنت وأنا أصغر من أن نناقش مثل هذه المسائل المعقدة .. على أي حال قل لي : كيف حالك في هذه الفيلا . أحسن من البلد ؟

– كلا بالتأكيد ، اذا كان عليك أن تقضي الصيف بطوله في فيلا . إنه من أجلي أنا أحضر بابا و ماما هذا التليفون حتى يمكنهما أن يكلماني عندما يكونان في البلد . أتظن أن تركيب التليفون كان مسألة سهلة ؟ كان عليهم أن يمدوا الأسلاك الى هنا خصيصاً من أجلنا ! .. وتظل جدتي فيلا تخبرهم كل مساء بما أفعل

طوال اليوم . أستطيع أن أصرح لك أن هذا التليفون شيء ضروري جداً . هل تعرف جدتي فيلا ؟

– كنت لتوي أحاول أن أتذكرها .

– الأحسن ألا تحاول ، لأنك لم ترها مطلقا ، فهي من دراجا ليفتسى ، ولا تذهب للسوق من المدينة مطلقا . إنها لطيفة جدا جدتي فيلا ! ، كلا ليست هنا . انما أردت فحسب أن أتأكد من أنها ليست هنا أو هناك قريبا مني حتى أستطيع أن أحدثك عنها . كان لها ولد ، لكنهم يقولون انه كان سكيرا وكان (بلطجياً) قضى معظم عمره في السجن ، وعندما أفرجوا عنه لفترة ، عاد اليها وضربها ، ومع هذا تناديه « ولدي » تصور ! قال لي الأولاد هذا ، لكنني أمامها أتظاهر بأنني لا أعرف شيئا على الاطلاق . تصور هذا ، أن تضرب ثم تظل تقول « ياولدي » . بالطبع لم أخبر بابا أو ماما بشيء ، لأنهما ما ان يكتشفا أن للجدة فيلا ولداً « بلطجياً » حتى يلقيان بها خارجا ، وهي وحيدة ، وحيدة تماما . وعلى فكرة ، لاتفشي السر ، كم ستكون تعيسة ! تصور معنى أن تعيش وحيداً ، وحيداً تماما !

– أستطيع أن أتصور هذا جيدا يارومي .

– لولا جدتي فيلا لكنت بالتأكيد أصبت بالجنون في هذه الفيلا .

– ألست معي في انك تبالغ يارومي ، فلو أنها لم تكن معك لكان والداك أعاداك الى البيت ؟

– ماذا ؟ حتى أقف في طريقها ؟ أنت لاتدري ياعم بيت ، إن مشاغلها كثيرة ، وأبي غالباً مشغول طوال الوقت ، وعندما يصطحب معه أمي ... انها

لن يتركاني وحدي ، أليس كذلك ؟ ان الامور تتعقد معنا بدرجة كبيرة نحن الآن في الصيف الجميل وليس علي أن أذهب للمدرسة ، ولا تستطيع جدتي فيلا العيش في المدينة لاصابتها بالربو كما تعلم ، وليس سهلاً على الاطلاق أن توفق في العثور على امرأة اخرى ، أما اذا كانت ماما وبابا سيستقران في المنزل فالأمر يختلف بالطبع .

– أتعني أنك لاتراهما الآن على الاطلاق ؟

– كلا ، أراهما ، ولكن في القليل النادر . بالأمس أفزعت جدتي فيلا أبي فهرع الى هنا . كانت بطني قد بدأت تؤلمني ، خافت جدتي فيلا واتصلت به فوصل بعربته (الأوبل) الجديدة في خلال خمس عشرة دقيقة . انها تستطيع الجري بسرعة مائة كيلو متر في الساعة ، لكن الشوارع في بلغاريا لاتتسع لها .

– آمل أن تكون آلام بطنك قد شفيت الآن .

– لطمة على الوجه شفتها في الحال .

– أرجو ألا تكون ضربت أحداً !.

– كلا ياعم بيت ، أبي هو الذي لطمني .

– ماذا ؟ وأنت مريض ؟

– ياله من مرض ..

– ألم تكن الحالة خطيرة ؟

– خطيرة !.. طبعاً خطيرة ! كنت أشاهد كيف يخصون الخنازير بالسكين ، ثم ..

– ماذا ؟ انتظرني الآن لحظة فلست أفهم مما تقول شيئاً . تقول الخنازير؟ يخصونها . . أية خنازير ؟ ومن الذي يخصيها ؟

– الطبيب البيطري طبعاً ياعم بيت ! ثمة بعض أولاد أذهب للعب معهم، فاهم ؟ ، القصد ، أخذوني معهم لألقي نظرة ثم .. بدأت بطني تؤلمني من نفس المكان الذي يخصون منه الخنازير .. أتفهم ماذا أعني ؟

– نعم ، نعم ، نعم .. أفهم بالتخمين ، فمثل هذه الحوادث المؤلمة قد تحدث للمفرطين في الحساسية كما تعلم .

– ظل أبي يسألني أين أحس بالألم ، لكنني رأيت أنه لايليق أن أخبره، ولما كان في عجلة من أمره حتى لاتفوته الطائرة ظن أنني انما كنت أدعي المرض لأضطره الى الحضور هنـــا مع ماما .. ، ولما رأى أنه سئم الحكاية صفعني على وجهي .. وعندئذ أخبرته .. ضحك مني قليلاً ثم مضى .. ما أسرع ماخفت آلام بطني عقب الصفعة إلكنك لاتدري ياعم « بيت » كم كانت هذه الخنازير تصرخ .. لابد أن العملية كانت تؤلمهـــا أشد الألم .. حسن ، لقد ثرثرت معك بما فيه الكفاية ، أريد أن أكلم عمتي سفتلا .

– عمتك سفتلا ليست هنا ياولدي .

– أين هي ؟

– ليست في المنزل ، ولن تكون فيه بالتأكيد لفترة طويلة .

– لكنها ما زالت تقيم هنا ، أليس كذلك ؟

– ماذا تقصد بـ « هنا » ؟

– في منزلك .

– هذه هي المسألة ياولدي ، يبدو أنها لم تعد تقيم هنا .

– أتعني أنك تعيش الآن وحيداً في منزلك ؟

– وحيد ياولدي .

ـ أتحس بالتعاسة ياعم بيت لأنك وحيد الآن ؟

ـ لابد أنك أنت بالذات تعرف ذلك جيداً ياولدي .

ـ نعم ياعم بيت ، ما أسوأ أن تكون وحيـداً ، لكن ألن تعود العمة سفتلا ؟

ـ هل أعطيك رقم تليفونها حتى تستطيع الاتصال بها ؟

ـ وهي ، هل تعيش وحدها ؟

ـ كلا ياولدي . انها تعيش مع بعض أناس طيبين ، مع امرأة عجوز طيبة كجدتك فيلا ، لكن ولدها عطوف للغاية يعتني بها وبعمتك سفتلا أيضاً كل الاعتناء . سأعطيك رقمها وسيسرها أن تتحدث اليك .

ـ هل أنت الذي أشرت عليها بالذهاب والاقامة مع هؤلاء الناس ، أم أنها ذهبت من تلقاء نفسها ؟

ـ لم أشر عليها بشيء ياولدي ، بالعكس ، لقد أصررت على ألا تذهب . عندك الآن رقمها ، هل ستتصل بها ؟

ـ كلا ، ليس الآن ياعم بيت ، في وقت آخر .. حسن ، وماذا تفعل الآن وأنت وحيد ؟

ـ وماذا ينبغي أن أفعل ؟ أجلس هنا أفكر في كل شيء ، أنتظر حتى يتصل بي أحد .

ـ هل تريد أن أتصل بك ثانية يا عم بيت !

ـ طبعاً ياولدي ..

ـ أعلم كم هو لطيف ان تجد من يتصل بك عندما تكون وحيداً . وهل ستتصل بي أنت أيضاً ؟ تستطيع أن تطلبني في أي وقت كما تعلم ، فلست أذهب الى أي مكان ، واذا شئت ، تستطيع أن تطلبني مساء أيضاً .

- حسن ، لكن ليس مستحباً أن اوقظك في الليل .

- لكنني يا عم بيت ، ... لكنني لا أنام في الليل ، وحتى لو نمت أحلم أن هناك من يطلبني وانني اكلمه . عندما تكون وحيداً لاتحس ميلا الى النوم . هل تنام الليل وأنت وحيد ؟

- ولا انا ايضاً أنام ياولدي .

- اذن فسيتصل أحدنا بالآخر . هل ستتصل بي الليلة ؟

- حسن ، ولم لا ما دمنا لاننام ؟

- وهل ستطلبني انت أم أطلبك انا ؟

- كلا ، سأطلبك انا .

- لاتنس يا بيت ! سأنتظرك .

- لن أنس ياولدي .

- حسن ، وعلى هذا يحسن ان ننهي المكالمة الآن حتى نجد مانتحدث فيه فيما بعد . إلى اللقاء ياعم بيت !

- الى اللقاء ياولدي .

- ضع انت السماعة اولاً .

- وهو كذلك ياولدي ، إلى اللقاء !

ووضعت السماعة ، وعندئذ تذكرت أنني نسيت أن أسال رومي عن تليفونه لكنني لم أسمع سوى صوت « الحرارة » .

الليلة ، كلانا سنكون في الفراش .. عيوننا على التليفون ، هذا إذا كان الصبي يهتم حقاً بمخابرتي ! من المؤكد أنه سيفعل ..

بادر إلى اختيار هديتك

ترجو إدارة مجلة «المعرفة» من كل مشترك أن يختار أحد الكتب المذكورة أدناه، برسالة تصل الإدارة قبل نهاية شهر تموز (يوليو) الحالي، كيلا يفقد المشترك حقه في الهدية عن هذا العام:

نهب العالم الثالث: لبيير جاليه — ترجمة الدكتور يوسف شقرا وأديب اللجمي

النهر: مسرحية شعرية غنائية للأطفال — لسليمان العيسى.

امرأتان في الزحام: مجموعة قصصية — لعبد العزيز هلال.

الرياح العاصفة: مجموعة شعرية — لممدوح مولود

الضوء الخافت: مجموعة قصصية — لحسن صقر.

الطاقة الشمسية: للدكتور مارسيل داغر.

الفيلبس: لأفلاطون — ترجمة الأب فؤاد جرجي بربارة.

حوار في ليل متأخر: مجموعة قصصية — لمحمد زفزاف.

احتفال ليلي خاص لدريسدن: مسرحية — لمصطفى الحلاج.

فيرنر هايزنبرغ وميكانيك الكم: لهيلير كوني — ترجمة وجيه السمان.



يجري سحب الاصدار الشعبي الثامن عشر بتاريخ ١٣ تموز ١٩٧١

الفهرس

قصة